١١٦

روايات أحلام

سارق الذكريات

www.elromancia.com

مرمورية

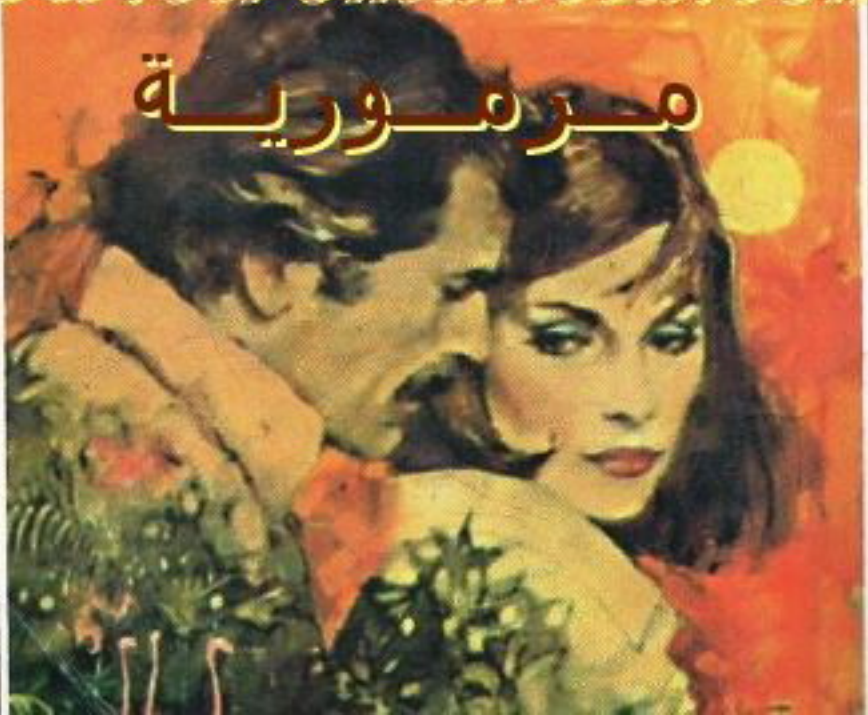

روايات أحلام

سارق الذكريات

www.elromancia.com

ـ ماذا أفعل؟ لا بد أنني جننت... أرجوك دعني أذهب !

نظر إليها بسخرية ... فتمتمت؟

ـ أنت لا تفهم.. أنا مخطوبة!

قال ببرود:

ـ ما زال بإمكاننا أن نتكلم لو أحببت...

وضعت يدها على فمها فاكتشفت أن الدموع على خديها ... غمرتها موجة سوداء من اليأس فارتدت لتبدأ بالركض....

... لم تنم حتى ساعات الفجر الأولى، فقد غزاها إحساس غريب بالشؤم. وعندما سارعت متعثرة إلى الشرفة، أيقنت أن الإحساس المشؤوم قد تحقق، فالمجهول الذي لم تعرف اسمه كان قد رحل...

لبنان ٢٠٠٠ ل.ل.	الإمارات ٦ د.	مصر ٤ ج.	ليبيا
سوريا ٥٠ ل.س.	قطر ٦٠٠ ر.	المغرب ١٥ د.	اليمن
الأردن ١ د.	البحرين ٦٠٠ ف.	تونس ١,٥ د.	السودان
الكويت ٥٠٠ ف.	السعودية ١٠ ر.	عمان ٦٠٠ ب.	العراق

١ ـ عناق الغريب

بدت صخرة العشاق كبيرة، تمتد في البحر بين شاطئين. . أحدهما طويل أبيض بينما يستدير الآخر حول خليج صغير مكتمل. عبر الطريق تناثرت منازل، لا ترى معظم أصحابها سوى في أوقات العطلة.

من مبنى مؤلف من أربع طبقات مواجه لصخرة العشاق خطت كولين فوربز نحو الصباح المشرق. . كانت في الثانية والعشرين، لها شعر أسود لمّاع يلامس كتفيها، عينان زرقاوان رماديتان، ووجه كلاسيكي الجمال، أنقذه من مظهر التكبر ثغر جميل وابتسامة عريضة.

كانت ترتدي ثوب سباحة بلون أخضر زمردي من قطعة واحدة، تحت بلوزة بيضاء، فبرزت معالم جسدها النحيل بدون إفراط. وقفت وفي يدها منشفة زرقاء ناعمة تحدّق طويلاً إلى البحر. وتتلفت حولها. إنها وحدها. . . فتنفست عميقاً واسترخت، ليس هناك عطلة مدرسية، ولا أعياد ليكثر الناس في هذه القرية الساحلية الصغيرة الواقعة على نهر «كلارنس».

بدا الارتياح على وجه كولين فيما كانت تنزل السلم الحجري الشديد الانحدار، المتلوي باتجاه الشاطىء، حيث رمت أشياءها على الرمال وسارت نحو الأمواج.

كانت المياه جميلة، منعشة. ألقت بجسدها في اليم، وعلى مسافة منها كانت مجموعة دلافين تلعب في المياه.

سحبت نفسها من بين الأمواج الخفيفة الهادئة بعد حوالى النصف ساعة. أبعدت الشعر الأسود المبلل عن وجهها وجبينها، ونظرت إلى البحر خلفها.. كان يمتد إلى البعيد نحو الأفق، وكأنه فراش حريري أزرق شاحب متموج. جرح جماله قلبها.. لكنها تذكرت أن قلبها سريع التقلب والتأثر، ولهذا آثرت العزلة، تريد أن تقرأ ما فيه.

في هذا الوقت بالذات استرعت انتباهها «صخرة العشاق» وقررت أن تستكشفها.

كان عليها أن تعبر كثيباً رملياً، وما إن وصلت حتى رأت ما يسميه السكان المحليون بصخرة العشاق، إنها قبة خضراء ناعمة معشوشبة، يحيط بها رف صخري مسطح، تشكل حداً ما بين التلة الرملية الضيقة والأجمة المنخفضة من الشجيرات حيث تقع.

وقفت عدة دقائق مترددة بين السير حول الرف الصخري المنبسط الحي حيث احتشد النورس ليستمتع بالمد المرتفع، وبين التوجه فوراً إلى الوسط.. لكن واقع أنها لا ترتدي حذاءً حسم المسألة، واختارت الطريق إلى الوسط، فسارت بحذر وترقب.

فجأة ترنحت وسقطت أرضاً مطلقة صيحة ألم حادة.. اتسعت عيناها رهبة حين وجدت شظية خشب قد انغرزت بعمق في كعب قدمها، فحاولت اقتلاعها بجلد وثبات لكن الشظية انكسرت وبقي جزء منها.. تنهدت ساخطة، وقررت التنقل على قدم واحدة حتى المنزل حيث تملك ملقط شعر تستطيع بمساعدته اقتلاع الشظية.

آلمها السير على أصابع قدمها المصابة، فصارت تمشي بضع خطوات ثم تجلس لترتاح متمتمة: أوه.. اللعنة.. هذا أمر سخيف! ثم تعود للسير مجدداً وسرعان ما تنهار من الألم. فجأة برز من بين الشجيرات رجل يحمل سلة وقصبة لصيد السمك، فشهقت:

ـ أوه!

فوجىء الرجل بها، فوضع حمله على الأرض وتوجه إليها.. فصاحت:

ـ لقد أرعبتني!

قال الغريب موافقاً بالتواء فمه:

ـ هذا ما يبدو.. دعيني أساعدك! لن أؤذيك.. ثقي بي.

وجدت كولين نفسها تبتسم قليلاً:

ـ ليت الأمر هكذا فقط. إن قدمي يشلها الألم، ولا أظن أن معك ملقط شعر؟

لا شك أنها تمازحه، فهو لا يرتدي سوى بنطلون قصير، ومن المستحيل أن يحمل معه شيئاً كهذا.

لاحظت بسرعة أنه قوي البنية، عريض الكتفين وقد وقف أمامها وفي عينيه بريق التقدير والإعجاب، وهو يحدق إلى قدها الرشيق وثوب السباحة الأخضر الذي يلف جسدها، تحت بلوزتها المبللة.

في نظرته شيء ما أسرها لفترة وجيزة. ابتسم لها فتجعدت زاويتا عينيه بجاذبية جعلتها تشهق دون توقع منها.

قال:

ـ ليس في جيبي ملقط شعر، لكن قد يكون معي شيء آخر في علبة الإسعاف.. لنرَ.

ركع إلى جانبها وأمسك بقدمها، فأحست بقشعريرة غريبة وهي تتفحص خطوط ظهره الأسمر القوي الذي كان يديره إليها.

سألت: «هل ترى شيئاً؟»

أنزل قدمها بلطف:

ـ أجل.. هل يمكنك السير أم أحملك؟

ضحكت:

ـ لست خفيفة الوزن.. لكن هل يمكنني التوكأ عليك؟

قال بسهولة: «طبعاً..»

لف ذراعيه بسهولة حول خصرها ورفعها بحركة مرنة.

حاولت الاحتجاج.. لكنه نظر إليها، وقد ملأت ابتسامة كبيرة عينيه اللوزيتين فوجدت نفسها تبتسم هي الأخرى كطفل وضع ثقته بمن يحمله، وقالت:

- وماذا عن أشيائك؟

- سأعود لأخذها لاحقاً.

دفع الشجيرات بكتفه، فأدارت وجهها نحو جسده اتقاء الأشواك.. انتابتها رغبة غريبة في أن تضع خدها على كتفه.. حقاً كولين..! وضحكت في سرها، فجأة رفعت وجهها ولكنها تشنجت بشكل ظاهر.. فسألها: ما بك؟

- أنت ذاهب في الاتجاه الخاطىء.. الطريق من هناك.

نظر إلى عينيها الزرقاوين وقال:

- لا حاجة بك إلى القلق. لن أخطفك.

أحست كولين باحمرار وجهها:

- أنا.. ما أعنيه.. أنني...

وصمتت عاجزة.. فقال:

- أعرف ما تعنين.

عرفت أنه يضحك منها في نفسه، وفيما هي تتصلب امتعاضاً، قال:

- إنني أخيّم على الصخرة، أترين، ها قد وصلنا.

أنزلها إلى الأرض، لكنه أبقى ذراعه حولها، فوقفت على قدم واحدة تنظر حولها. كانا في تجويف صخري صغير، وكان تحت أقدامهما عشب كثيف، وأمامهما خيمة كاكية اللون مع مظلة زرقاء متصلة بها وقد ربطت بمجموعة شجيرات قصيرة.. راحت تتطلع حولها، فإذا بها تشاهد منظراً رائعاً للبحر والموج، والساحل الممتد بعيداً إلى ما لا نهاية...

صاحت مستغربة:

- آه! يا لها من فكرة رائعة! هل أنت هنا منذ وقت طويل؟

- منذ بضعة أيام.. ليتك تجلسين!

ساعدها فجلست على كرسي من قماش تحت المظلة. ثم فتش في حقيبة ظهر وأخرج علبة إسعاف صغيرة، رفع نظره إليها وابتسامة تتراقص على وجهه قائلاً:

- لم أضطر لاستخدام هذه من قبل.. لذا فلست واثقاً.. أوه.. أجل ملقط، مطهر، ورباط. كل ما سوف تحتاجينه هو قماش سميك لتعضي عليه.

ضحكت: «آه! لا.. شكراً.. سأعتمد على شفتي العليا.. أعضها، فأنا بارعة في هذا.. كما قيل لي».

وما هي إلا دقائق حتى تلاشت قدرتها على التحمل، وكان قد أخرج شظية بطول إنش على الأقل، وبرأس مدبب حاد، فيما اغرورقت عيناها بالدموع.

ابتلعت ريقها وهي تنظر إلى الشظية في راحة يده، ثم مسحت أنفها بظاهر كفها:

- آسفة.. أنا عادة لست ضعيفة كطفلة.

أجاب وهو يصب المطهر على قدمها:

- لقد لاحظت أنك شجاعة.

وضع الرباط اللاصق:

- ما رأيك بشيء نشربه الآن؟

هزت رأسها موافقة، فصب قليلاً من القهوة من إبريق حافظ للحرارة، وأعطاها كوباً، ارتشفت القليل منه فأحست بالدفء يسري في جسدها.. وتنهدت. ثم نظرت إليه مبتسمة:

- أنت رجل طبب.. وأنا آسفة لأنني قد أسأت الظن بك.

www.elromancia.com

رفع حاجبيه متسائلاً:

- من أين لك أن تعرفي.. أترغبين في البقاء للغداء؟

نظرت إليه متسائلة أيضاً فأضاف:

- في سلتي أربع سمكات «شبوط» طازجة، وهناك موقد جاهزة، ما رأيك؟

قالت ببطء:

- يبدو.. هذا.. ساحراً!

- عظيم! ابقي حيث أنت سيدتي.. سيكون الغداء جاهزاً خلال لحظات.

جلست كولين في أشعة الشمس المنخفضة، تتمتع بقهوتها، يغمرها مزيج من الإحساس بالابتهاج والخيال، وهي تراقب منقذها يحضّر الطعام، وقد أشعل موقداً صغيرةً وما هي إلا لحظات حتى كانت سمكات «الشبوط» تغلي في الزيت.

وفيما هي تراقبه يأخذ بعض الجبن من برّاد يدوي ويقطعه بسكين حادة، خطر لها أن تمازحه فقالت له:

- أرجو أن ألتقي بك مرة أخرى إذا انغرزت شظية في قدمي.

هز كتفيه: «لكنني أرجو ألا تكون شظية كهذه».

سألت وهي تميل رأسها جانباً:

- هل أنت.. جوّال محترف؟

قلّب السمكات قبل أن يرد، ثم رش الجبن فوقها ونظر إليها بعينين خضراوين وهو يقول:

- غالباً.. لماذا تسألين؟

- حسناً.. تبدو مكتفياً! وكأنك تعيش في منزلك!

- ألم تخرجي لتخيمي من قبل؟

- مرة واحدة. استطاعت أمي أن تجعل المناسبة خليطاً من رحلة

«سافاري» فاخرة، ومن عذاب تدريب. لقد جرت بطريقة خاطئة. لم أكن أعرف أن الأمر بهذه البساطة.

نظرت حولها.. كان في الخيمة أقل ما يمكن وجوده من معدات: كيس نوم، فراش، وسادة، مجموعة كتب، وكيس ملابس صغير.. تحت المظلة، بالإضافة إلى طاولة مخيم، والكرسي الذي تجلس عليه، كان هناك قصعة ووعاء طبخ، والبراد الصغير النقال، وقنديل. فهزت رأسها:

- كنا يومها مرهقين بالمعدات.. بشكل لا يصدق.

وراحت تتأمل وجهه، إنه ليس وجه جوال محترف.. أو على الأقل، ليس كما تتصوره ملتحياً، مشعثّ الشعر. والأرجح أنه.. كيف يمكنها أن تصفه؟ إنه يعطي انطباعاً بأن صاحبه رجل محنك، يتمتع باكتفاء ذاتي، وناضج جداً. إنه وجه رزين منكب على ملاحقة الثراء، أو ملاحقة جاره الأقرب: السلطة.. أو كليهما.

لكن جسده ناعم، قوي، ينساب بأناقة.. لم يكن ذلك الدمث الأنيق، المدلل، المتخم قليلاً من العالم الذي تجول فيه.. إنه رجل قانع ببساطة بالتجول..

- ما بك؟

أجفلها سؤاله فانتزعها من أفكارها، وقد أحست أنه كان يراقبها، فأجابت وقد علت الحمرة خديها:

- لا شيء.. نحن لم نتعارف حتى الآن.. اسمي كولين.

- كولين.. يناسبك بطريقة ما.

- صحيح؟ اسم غريب لشخصية غريبة؟

وضع السمكات في طبقين، ثم قدم أحدهما إلى كولين:

- حقاً؟! أهكذا تنظرين إلى اسمك؟

ضحكت: «لا.. مع أن بعضهم يرى هذا.. في الواقع أنا فخورة باسمي.. وما اسمك؟»

www.elromancia.com

- جوناش.. معروف عادة باسم ناش، وهو اسم غير رومانسي كاسمك.

- إنه اسم مأخوذ من التوراة.

تناولت لقمة من السمك:

- همم! هذا رائع!

- أنا مسرور لإعجابك به، كولين.

أكملا الطعام بصمت للحظات، ثم قالت وفمها مليء بالطعام:

- إلى أين تنوي الذهاب؟ هل لديك خطط مسبقة؟ أو لعلك تذهب إلى حيث صيد السمك؟

- تبدين وكأنك تحبين أن تفعلي هذا أنت أيضاً.

- أنا حقاً أفكر بهذا.. قد تكون نقلت لي العدوى.. ما أجمل هذا وأبسطه!

تساءل: «أوه.. يبدو أنك تحاولين الهرب من شيء ما!»

أخرجت كولين شوكة من فمها، ونظرت إليه. لكنه كان مشغولاً بأكل سمكته وهو جالس على الأرض متقاطع الساقين.

- ولماذا تقول هذا؟

- تبدين.. خائبة الأمل.

وضعت سكينها وشوكتها من يدها باعتناء، وقالت ببطء:

- قد يكون هذا صحيحاً.. فأنا أحس.. كأنني مطوقة.. وقد أتيت إلى هنا لأفكر. ليس سهلاً أن لا تفهم نفسك.. هل أحسست بهذا يوماً؟

تأخر في الإجابة وبدأت تحس بالقلق. تصورته يتساءل عما إذا كانت غريبة كأسمها.. ثم ضحك وتجعدت عيناه بتلك الطريقة الجذابة الآسرة للقلب، وقال:

- لا تنظري إليّ بقلق هكذا.. إنه إحساس بشري. هل هذا بسبب رجل ما؟

ترددت كولين، ثم قالت بهدوء:

- بل بسبب نفسي.. لماذا يفترض الرجال دائماً أنهم مسببو المتاعب للنساء؟

هز كتفيه:

- لا أدري.. يقال إن هذا يجعل الدنيا تدور.

فكرت: لكن ليس دنياي.. أبداً. وهذه هي المشكلة.. ثم تنهدت تربت على معدتها شاكرة وتدفع الطبق الفارغ بعيداً عنها، قائلة:

- أتمانع لو توقفنا عن الكلام عني؟ إنه موضوع ممل جداً، ولا يستأهل وجبة طعام رائعة.

- حسن جداً.. عن أي شيء ترغبين أن نتحدث؟

- دعني أقول لك شيئاً. لو لم أتطفل على مخيمك، فكيف كنت ستكمل بقية هذا اليوم الرائع؟ بالمزيد من الصيد؟

- فيما بعد.. أجل.. لكنني الآن أفضل أن أقضي بضع ساعات متكاسلاً، ربما في القراءة. ثم أنزل للسباحة، ثم الغوص قرب الصخور للتفتيش عن السرطان للعشاء.. ثم بعد العشاء..

وهز كتفيه:

- أستمع لبعض الموسيقى على ضوء النجوم، أقرأ المزيد ثم أنام.

نظرت كولين إليه فاغرة فاها فأكمل:

- ربما ترغبين في الانضمام إليّ؟

- ألن.. ألن أفسد هذا عليك؟

نظر إليها مفكراً:

- ربما.. تزيدينها جمالاً...

قاطعته: «أعني.. أعرف كيف تشعر وأنت ترغب حقاً في أن تكون بمفردك.. وبشكل غريب، هذا ما كنت أريده اليوم.. لكن الآن..»

وصمتت.. فأكمل قائلاً ببساطة:

www.elromancia.com

ـ لا تفعلي إذن.

* * *

كانا يجلسان أمام النار، وغطاء مطرز بالنجوم فوقهما، وصوت المحيط حولهما.. في عرض البحر، أنوار متلألئة صغيرة تتأرجح مع التقاء أسطولين صغيرين من قوارب الصيد على الطرف الآخر من فم النهر..

كانت كولين قد وضعت سترة كبيرة فوق ثوب السباحة.. شعرها مشعث كما لو أنه لم يسرحه المشط منذ زمن فقد سبحت مرتين، وريح البحر قد تلاعبت به.. لكن وجهها كان يتوهج في أشعة النار، وكأن اليوم الذي مر بها شيء ثمين جداً.

وهكذا كان بالفعل.. فقد سبحا معاً، وتحدثا عن كل شيء تحت الشمس إلا عن نفسيهما.. ثم علمها مبادىء الغطس تحت الماء، وافتتنت بما تعلمت حتى أنها اهتمت كثيراً بعملية طهو ثلاثة سراطين منكودة الحظ، التقطاها.

كان العشاء وجبة لذيذة، سرطان، بعض الهليون المعلب، سلطة بطاطا معلبة كذلك، لكن مع خس طازج وطماطم من البراد الصغير النقال.. بعض الجبن والبسكويت كنهاية للعشاء.. ثم جمعا معاً الحطب لنار المخيم، وفرش ناش بساطاً، حيث جلسا يستمعان إلى موسيقى موزارت عبر مسجلة تعمل بالبطاريات.

نظرت إليه وهو متمدد يستند إلى مرفقه، يحتسي القهوة، كانت قد عرفت في النهار أنه دائماً يتأخر في الرد.. أصبحت تعرف أشياء لا بأس بها عنه، وأهمها أنه يحيط نفسه بهالة من التحفظ، تبقي مسافة بينه وبين الآخرين.. ثم هناك دائماً وميض تسلية في عينيه اللوزيتين، وكان يمكن لهذا أن يثير أعصابها، لكن لم يحصل هذا.. أما ما تبقى، فقد عرفت من حديثه وطريقة كلامه أنه مثقف جيداً، وقد أخبرها أنه في السابعة

والثلاثين، رداً على سؤالها، ثم قدّر عمرها فأصاب، وقال لها إنه سافر إلى أماكن بعيدة، وإنه نشأ في ڤيكتوريا.

قالت له:

ـ أخبرني عن كل الأماكن التي زرتها.

ـ أماكن كهذه.. أم مدن؟

ـ مثل هذه.. فأنا لا أتصورك تستمتع بالمدن.

نظر إليها: «سرعان ما تضجرين من البرية كولين».

تنهدت تحرك القهوة في كوبها.

ـ أعتقد هذا.. إنها مسألة استغناء عن الناس أليس كذلك؟ كيف تتمكن من هذا؟ أكان الدرب قاسياً طويلاً قبل.. أن يحدث هذا؟

ـ ولماذا تفترضين أنني أود الاستغناء عن الناس؟

ـ لست أدري.. شيء في حياتك.. وأنت قلت لي إنك جوّال، وهذا يعني شخصاً لا يحتاج كثيراً إلى الناس من حوله.

صمت يحدق إلى النار.. ثم قال:

ـ لست محقة كلياً.. فأنا أحتاج... الناس.

ـ أتعني النساء؟

ارتفعت عيناه اللوزيتان إليها: «من وقت لآخر».

قالت بجفاء: «ولكنها حاجة جسدية.. أليس كذلك؟ لا حاجة روحية».

قال: «هذه مسألة تتوقف على أشياء كثيرة.. فإذا كانت الأمرين معاً، فهي بكل تأكيد أكثر من حاجة جسدية.. ألم يحدث معك مثل هذا من قبل؟»

ـ الأمر..

وصمتت تعض شفتها، ثم رفعت كتفيها في إشارة قلق غريبة، ثم ابتسمت لتضيف:

ـ أنا مشغولة الأفكار قليلاً في هذا الموضوع.

ـ لكن.. لستِ عديمة الخبرة أبداً؟

أشاحت وجهها عنه ثم أعادت النظر إليه:

ـ لا.

حدق إلى عينيها بشدة، حتى أخفضت رموشها على عينيها الزرقاوين المخضرتين.. ثم قال أخيراً:

ـ أترغبين في المزيد من القهوة؟

علقت تنهيدة ارتياح في حلقها، وهزت رأسها بصمت. أعطته الكوب.. لكنها لم تستطع منع نفسها من النظر إليه وهو ينحني فوق النار ليجلب إبريق القهوة.. كان هو كذلك يرتدي سترة بحارة قديمة فوق سرواله القصير، شعره الأشقر الكثيف مشعث وقد علق به الملح.. وأدركت في لمحة إحساس مفاجيء خطفت أنفاسها، أنها تحس بوجود هذا الرجل كما لم تشعر قط والواقع أن هذا الإحساس كان ينمو طوال النهار وكأنه شوق سرّي، ولكنه شوق بلا تفسير وهو إلى ذلك محرج بشكل لا يصدق.

ثم أحست به يقف أمامها، يقدم لها كوب القهوة فأخذته منه بيدين مرتجفتين فجأة، ووضعته على الأرض، إنما ليس قبل أن تسكب القليل منه وتحرق أصابعها.

قالت بطريقة مفككة، مسرعة: «أنا.. أنا.. بعد هذا.. يجب أن أذهب.. حقاً. لا شك أن الوقت متأخر جداً».

لم تجرؤ على رفع بصرها إليه، وأحست بخفقان بائس في قلبها..

لكن صوته كان هادئاً رزيناً حين قال:

ـ لماذا لا تبقين هنا، كولين؟

أجفلتها الصدمة لحظات.. ثم قالت عن غير تفكير:

ـ ماذا.. لماذا؟

ـ ظننتك تعرفين.. ظننت نفسي أؤثر فيك، كما تؤثرين فيّ.

رفعت نظراتها إليه:

ـ وهل هذا صحيح؟ لم أكن أعرف...

صمتت تلعق شفتيها، فأجاب بسرعة: «أجل.. أنت تؤثرين فيّ».

ومد يده.

أمسكتها ببطء وتركته يوقفها على قدميها.. ثم همست، وقد توردت وجنتاها:

ـ كيف عرفت؟ أنا لم... وهل أنا شفافة إلى هذه الدرجة؟

لف أصابعه حول معصمها:

ـ وهل الأمر مهم؟

وضع يده الأخرى تحت ذقنها وأدار وجهها إليه:

ـ أيجب أن تخفي هذا؟

تمتمت:

ـ لكنك تمكنت من إخفائه.

ـ هذا لأنني لم أرغب في إخافتك.. ولو كنت تذكرين، لقد تساءلت كثيراً عني.

ـ أعرف.

ـ والآن؟

رفرفت جفنيها بحيرة:

ـ الآن؟ أيمكن لهذا أن يحدث هكذا؟ أحس أنني أحلم.

رفعت أصابعه ذقنها:

ـ يمكن أن يحدث كما ترغبين كولين.

حبست أنفاسها:

ـ ماذا.. تعني؟ أنا لا.. أنا لا أفهم...

ـ أعني.. أن بمقدورك أن تقولي لي ماذا تريدين وسأفعل. أو

www.elromancia.com

بإمكانك.. بإمكاننا التحدث.. أو.. يمكن أن نستغني عن الكلمات.. الأمر عائد إليك.

أنزل يده عن ذقنها، ووقف ينظر إليها. ارتجفت كولين من رأسها حتى أخمص قدميها. وارتفعت يداها عن غير وعي منها، وعقدتهما لتبدأ بقول شيء.. لكنها امتنعت بإرادتها الكاملة، وهذا ما ستذكره إلى الأبد... تحركت إلى ما بين ذراعيه.

كان عناقاً طويلاً بطيئاً لا يشبه شيئاً عرفته من قبل.. تعانقا وذابا معاً.. كانت نبضاتها تخفق بنغم رتيب مهتاج، ثم عادا إلى العناق بجوع غريب.

أمسك بيديها خلف عنقه ونظر إلى عينيها بارتباك.. بحركة غير واعية، أرخت تشابك أصابعها لتتمكن من العبث بالخاتم الذي كان عادة في إصبعها اليمنى.

كان هذا كإطلاق النار.. أنزلت ذراعيها عن عنقه وهمست بصوت مدمر وقد امتقع وجهها:

ـ ماذا أفعل؟ لا بد أنني جننت.. آه.. أرجوك دعني أذهب!

نظر إليها بثبات فترة بدت عمراً.. وضاقت عيناه بسخرية.. فتمتمت:

ـ أنت لا تفـ.. تفهم.. أنا مخطوبة.. وكل ترتيبات الزواج تامّة.

أجفلتها ابتسامته وقالت:

ـ لا أدري ما تظن بي!

تركها وارتدّ إلى الوراء.

قال ببرود: كان علينا أن نتحدث أولاً لكن ما زال بإمكاننا أن نتكلم لو أحببت.

وضعت يدها على فمها فاكتشفت أن الدموع على خديها.. فظاعة ما كادت تقدم عليه مع فظاعة محاولة أن تشرح، غمرتها بموجة سوداء من

اليأس فارتدت على عقبيها لتبدأ الركض.

لم تكن متأكدة أنه يلحق بها.. وبعد أن خفت الظلمة أمامها ارتدت لتعرف السبب، فإذا بها ترى نور مصباح يدوي يتحرك خلفها، وأدركت أنها فقدت كل إحساس بالاتجاه، ولا تعرف إلى أين تذهب.. فابتلعت ريقها وتنفست بعمق.

لقد تأخر الوقت.. سمعته يناديها وقد تلاعب نور المصباح عليها.. وقفت مسمرة وكأنها التمثال. عندما دنا منها تساءلت بخوف عما ينوي أن يفعل.. لا شك أنه غاضب.

حين توقف أمامها، كان الذي رأته يعتم عينيه هو الغضب.

قال ببرود: «أنت مجنونة».

ـ أعرف.. لكن، أرجوك لا..

ـ لا.. ماذا؟ أنا لا آخذ من المرأة شيئاً بالقوة.. في هذه اللحظات بالذات لا أستطيع التفكير في هذا يا حلوتي! فاطمئني بالاً.

حدجها بنظراته الساخرة من رأسها إلى أخمص قدميها فتوردت وصرّت على أسنانها:

ـ إذن.. لماذا لحقت بي؟

ـ لأنك قد تدقين عنقك، وهذا الأمر لن أستطيع إصلاحه بسهولة كما حدث مع الشظية وثمة أسباب خاصة تجعلني لا أرغب في أن تدقي عنقك.. أشعر بأنني مدين بهذا لخطيبك.

أغمضت عينيها، وابتلعت ريقها عدة مرات. ثم قالت بهدوء:

ـ حسن جداً.. هلا أرشدتني إلى الطريق.. فأنا ضائعة.

كانت رحلة غريبة صامتة.. وتنفست ساخطة حين أدركت أنها لم تكن بعيدة كثيراً حين لحق بها..

قالت فجأة: «شكراً لك.. أستطيع تدبر أمر نفسي من هنا».

لوّح بالمشعل، ثم تركه يسكب نوره على سيارة لاندروفر متوقفة

www.elromancia.com

هناك . . وقال فجأة أيضاً:

ـ هذا لي . . إذا كان طريقك بعيداً، فلا تتظاهري بالبطولة . . لن تعرفي أبداً ما قد يواجهك في مثل هذا الوقت من الليل . . ربما تواجهين رجلاً غير متفهم مثلي.

خنقت العبرة التي ارتفعت إلى حلقها، وأشارت إلى الطريق.

ـ المكان قريب هناك . . صدقاً.

تفرس فيها، ثم هزّ كتفيه وارتدّ مبتعداً.

ـ وداعاً إذن . . كان لقاؤنا . . مثيراً للاهتمام.

ذبلت ببؤس أمام سخريته. قالت: «أنا . . آسفة . . أنا . . »

ثم صمتت وهي ترتعش فعقدت ذراعيها حول صدرها:

ـ أنا . . أوه! ما زلت أرتدي سترتك . . هاك . .

ارتدّ قليلاً: «فلتبق معك».

ترددت، وتكورت شفتاها لتقول شيئاً، أو ربما لتتلفظ باسمه متوسلة، ولكنه سار مبتعداً عنها حيث ابتلعه الظلام، ولم تعد ترى منه سوى نقطة الضوء التي يلقيها مصباحه . . راقبته حتى غاب عن ناظريها ثم ارتدت متعبة لتتابع الطريق إلى المنزل.

ولكنها لم تنم حتى ساعات الفجر الأولى، وكان نوماً قلقاً مضنياً، يغزوه إحساس غريب بالشؤم.

حين أخرجت نفسها أخيراً منه، سارعت متعثرة إلى الشرفة، فأحست أن ذلك الإحساس المشؤوم قد تحقق. فاللاندروفر كان قد ذهب.

* * *

٢ ـ عينان ساخرتان

بعد ستة أسابيع من هذا، تسلقت كولين آخر بضع درجات باتجاه باب دارها تبحث بيأس عن المفتاح، ثم دخلت كالعاصفة لترد على رنين الهاتف الحاد، وتقول مقطوعة الأنفاس: «آلو؟»

ـ كولين؟ أهذه أنت حبيبتي؟

ـ أجل أمي، لقد وصلت لتوي وقد سمعت الهاتف يرن وأنا أقطع الممر الخارجي.

ـ كنت سأحاول مرة ثالثة، أكان يومك حافلاً؟

كشرت كولين: «بل كان تافهاً . . ماذا تفعلين وأبي هذا المساء؟»

ـ نقيم حفل عشاء.

أنزلت كولين حقيبة يدها عن كتفها، وانتزعت قرطها: «آه!»

قالت أمها بإشراق: «أجل . . المدعو شريك عمل لوالدك . . إنه رجل مثير للاهتمام . . نتمنى لو تأتي . . ولهذا أتصل بك».

نظرت كولين إلى ساعتها، وقالت على مضض:

ـ أمي . . تأخر الوقت قليلاً . . ولا أحس برغبة للاجتماعات.

قالت تيسا فوربز بقلق:

ـ حبيبتي . . منذ عدت من رحلتك الغامضة إلى «نيوساوث وايلز» وأنت في مزاج غريب . . فهل من خطب؟ هل هناك ما ترغبين في البوح به؟ لن أضغط عليك، إنما . . إلغاء موعد الزفاف مثلاً، صحيح أنني لا

www.elromancia.com

أريد منك أن تتزوجي إلا إذا كنت واثقة كل الثقة.. لكن.. هل فعل لوكاس..

قاطعتها كولين: «لا شأن للوكاس بالأمر.. بل أشعر أنني.. لست أدري.. ولا أعرف كيف أصف ما أحس به.. قلقة».

كانت نبرة صوتها غريبة ملؤها المرارة، فسألت الأم:

- وهل حدث ما يجعلك تشعرين هكذا؟

فكرت كولين: أجل.. ليتني أستطيع أن أنسى..

قالت بقلق: «ليس في الواقع».

تساءلت لماذا لا تستطيع الإفضاء لأمها بمقابلتها لذلك الرجل الذي تعلق به قلبها.

قالت تيسا ولو بشيء من القلق:

- حسن إذن.. لقد أحسنت عملاً.. ومن حسن الحظ أن لوكاس صبور جداً.

- عندما يكون مرشحاً للزواج بوريثة ثروة فوربز يمكنه تحمل الصبر..

صمتت أمها فترة طويلة.. ثم قالت بشيء من الارتباك لا بشيء من الزجر.

- حبيبتي.. ليس لوكاس هكذا.. كما تصفين.

أغمضت كولين عينيها: «لا.. لا.. إنه ليس كما وصفت.. ما كان عليّ أن أقول هذا».

- كولين، لماذا لا تأتين الليلة إلى العشاء؟ ستكون مناسبة للتغيير من الضجر.. على الأقل.

تنهدت كولين: «أنا.. حسن جداً».

كانت الساعة قبل السابعة والنصف حينما أوقفت سيارتها الصغيرة الرياضية تحت قنطرة المنزل الرائع الذي طالما اعتبرته بيتها. يقع منزل

والدها على حنية من حنايا نهر «نيراغ» وهو عزبة أراضيها واسعة..

جلست للحظات تحدق أمامها ثم ترجلت من السيارة تنفض تنورتها.

كان فستانها بلون اللافندر الأزرق، بلوزته دقيقة التثنية، وتنورته ملتصقة ومع ذلك فيها باردات من القماش الناعم.. كانت كتفاها ترتفعان برقة ولم يكن يزين عنقها شيء أما الحلية الوحيدة التي تتزيا بها فخاتم خطوبتها الألماسي. كان شعرها الأسود منسدلاً ليغطي كتفيها.. وكانت قد أمضت بضع دقائق زائدة لتعتني قليلاً بوجهها، والنتيجة رائعة، ولكنها دون المطلوب.

حياها ستايسي مستقبلاً عند الباب كما كان يستقبل الجميع فلانت تعابير وجهها.. فستايسي هو فرد من أفراد منزل فوربز.. كان هو ووالدها جنديين نظاميين، ويعرفان بعضهما بعضاً منذ تخرج والدها من الكلية الحربية الملكية. بينما ترقى سايمون فوربز إلى رتبة مايجور جنرال وأصبح يحمل رتبة فارس ظلَّ ستايسي قانعاً بأن يكون مرافقاً له.

ما إن تقاعد السير سايمون من الجيش، ليصب اهتمامه على رعاية الأعمال العائلية حتى انتقل ستايسي معه إلى منزله وقام بعدة أدوار مختلفة: خادم شخصي، سائق، مثلاً.. وكان من الصعب تصور العائلة بدون ستايسي. حيا كولين بحرارة وقال لها إن والديها ينتظرانها في غرفة الجلوس.

كانت غرفة عظيمة فيها سجاد عاجي اللون، ومقاعد مفروشة بقماش عاجي أيضاً، ومقاعد عادية ذات لون أخضر ناعم فيها إطارات مطرزة وقوائم محفورة. إنها غرفة تجعل المرء يلتقط أنفاسه، وهذا ما فعلته كولين، لكن لسبب مختلف، فقد رأت وهي واقفة عند العتبة والديها يقفان على الشرفة خلف الغرفة، متشابكي الأذرع وأمها تضع رأسها على كتف أبيها.

أحست بقلبها يخفق بحدة لرؤية الشخصين اللذين تحبهما أكثر من

www.elromancia.com

أي شيء في الدنيا الشخصين اللذين هما أكبر من الوالدين التقليديين، ربياها باهتمام كبير وبحب كثير.. والدها لطيف مثقف.. وأمها ذكية محبة.

التفتت أمها فلمّا شاهدتها لمعت عيناها بحرارة.. لكن كولين لاحظت وهي تتقدم لتقبلهما أن والدها يبدو متعباً.. فقالت بلهفة:

ـ أبي.. ماذا كنت تفعل؟ تبدو وكأنك...

سألها مبتسماً: عجوز؟ أنا أتقدم فعلاً في السن حبيبتي.. أترغبين في شراب ما؟

ـ شكراً.. لكنني لم أقصد..

وصمتت تتقبل كوب عصير من والدها.. ثم رن جرس الباب ينغم موسيقي.. أدركت أن لا فكرة لديها عمن يقيم والداها الحفلة على شرفه.

ـ على فكرة.. من...

ظهر ستايسي في الباب، متمتماً:

ـ السيد موردون.. سيدي.

تنحى جانباً ليدخل رجل طويل أشقر الشعر إلى الغرفة، في الوقت ذاته كادت كولين تشرق بشرابها..

لا يمكن هذا.. إنها لا تصدق.. سعلت وارتدت مبتعدة، فسارعت أمها محاولة ربت ظهرها.. آه.. يا الله!

تمتمت لأمها: «لا.. أنا بخير».

ارتدت على مضض كبير فرأت والدها ماداً يده لاستقبال ضيفه. أما جوناش موردون فكان ينظر إليها مبتسماً ابتسامة خفيفة ولكن في عينيه نظرة سخرية.

ثم تلاشت تلك البسمة وتلك النظرة حين التفت إليه والدها وقال بطريقته الوقور القديمة الطراز:

ـ أهلاً بك في منزلنا ناش.. هل لي أن أقدم لك زوجتي، تيسا..

وابنتنا، كولين.. أؤكد لك أنها غير معتادة على استقبال الضيوف بهذه الطريقة.

ابتسم بخبث، ثم سأل كولين:

ـ هل أنت بخير الآن.. حبي؟

ـ بخير..

لكنها وجدت أن عضلات حنجرتها متشنجة.. مدت يدها كما فعلت أمها ولكنها لم تستطع النظر إليه، وقالت: «كيف حالك؟»

ما تخشاه قادم! لا شك أنه سيقول: لقد سبق أن تقابلنا أو أنها وقعت أرضاً في المرة الأخيرة التي حيتني فيها..

لكن ناش موردون لم يردد شيئاً مما تخيلته، بل اكتفى بأن أمسك يدها حتى اضطرت إلى رفع بصرها إليه. ثم قال:

ـ يا له من اسم غريب.. كيف حالك كولين؟

فيما كان جزء منها يتنفس الصعداء كان جزء آخر يجد نفسه في بؤرة من المشاعر المختلفة التي تتحدى كل وصف.. مع أن السخط المرير كان بالتأكيد أحد هذه المشاعر وكانت تشعر به خاصة عندما تستقر العينان اللوزيتان الساخرتان على وجهها.

قالت الأم: «إنه غريب فعلاً.. أليس كذلك؟ اسمها في الواقع كلوداليـن.. لكنني الوحيدة التي لا تختصره. وقد ظللت عدة سنين أقول ان الاسم بدائي ولكنني لم أجد قط معناه».

قال ناش، وكأنه لم يسمع كل هذا من قبل:

ـ حقاً؟

ابتسمت تيسا، ودست ذراعها بذراعه، بطبيعية:

ـ أجل.. حقاً.. والآن تعال.. دعني أقدم لك شراباً.

راقبتهما كولين وهما يبتعدان، رأسه محني باهتمام نحو أمها. أغمضت عينيها.

قال ناش مورداون، بعدما عادوا إلى غرفة الجلوس لتناول القهوة بعد العشاء:

ـ كان عشاءً لذيذاً لايدي فوربز.

فكرت كولين بجفاء: لا.. لم يكن لذيذاً.. وأخذت تعبث بخاتم الخطوبة وتصغي بنصف انتباه إلى الحديث. كان الطعام في فمها كنشارة الخشب، ولن تصدق أن هذا ليس كابوساً يتراءى لها.. جوّال محترف.. هه؟

نظرت إلى الأريكة التي تتشاركها أمها مع الضيف.. بدا وكأنه في منزله. وكأنما بذلة العشاء السوداء صُنعت خصيصاً له.. وهذا ما هو صحيح على الأرجح.. ومقدمة قميصه الأبيض الناصع مكوي ومنشى.. وشعره الأشقر الكثيف ناعم مرتب.. بدا وكأنه أي شيء سياسي ناجح، أو قطب من أقطاب المناجم.. أي شيء إلا جوّال محترف قانع بالسفر إلى البعيد، هارباً من الأضواء والثروة.. آه.. كولين.. ما أشد غباءك! فكري أنك في الأسابيع الستة الأخيرة كنت تعيسة كل التعاسة وتتساءلين بالفعل عما إذا كان يجب عليك أن ترمي كل شيء من أجله، من أجل أسبوع أو سنة، أو أي مدة كان يريدك فيها..

خرجت من أفكارها المؤلمة متنفضة لترى أن أمها تنظر إليها باستغراب.. فقالت بهدوء:

ـ أنا آسفة.. كنت أحلم.

قالت الأم: «كنت أخبر ناش عن لوكاس».

تقوقعت كولين من الدّاخل، ولكنها تمكنت من التقاء النظرة اللوزية بهدوء، وسمعته يتمتم:

ـ لك أفضل تمنياتي..

في صوته سخرية لم يلاحظها أحد إلا كولين.

ـ شكراً لك.

ـ ومتى اليوم الكبير؟

سارعت الأم تقول قبل أن تتمكن كولين من الرد:

ـ لم نقرر حتى الآن.

ابتسم لكولين ورفع حاجبيه متسائلاً: أوه؟

ارتدَّ رأسه عن تيسا فوربز.. وكان فيه الكثير من الوقاحة.. فعضت كولين شفتها، وكبحت رغبة في النهوض لتصفعه.

أضاف: «حسن جداً.. هذا من حق السيدة على ما أعتقد».

قالت تيسا بحبور:

ـ لا تشجعها..! قل لي هل أنت متزوج؟

ـ لا.

قالت والدة كولين بصراحتها المعهودة:

ـ الآن.. هذا ما يدهشني.. أعني أنك استطعت المراوغة.. ظننت أن الفتيات يقفن في الصف انتظاراً لهذا الشرف.. ولكن كثيراً ما أخطىء في مثل هذه الأمور.. أليس كذلك سايمون؟

قال السير سايمون ممازحاً:

ـ أعتقد أن هذا هو سبب اختيارك لي.

ـ بالتأكيد ولكنني اخترت أفضل رجل.

تحركت كولين بقلق في مقعدها، لكن ناش مورداون ضحك وتابع الحديث بسهولة.. مع أن من يعرفها جيداً يعرف أنها هادئة على غير عادة.. تابع لعبة الادعاء بأنه لا يعرفها بشكل رائع، ولكن نظرات غريبة كانت تتحدث كثيراً إليها، لم يُظهر أي دليل على اضطرابه لصمتها الذي لم تكن قادرة على الخروج منه.. في الواقع كان الضيف المثالي يُظهر الاهتمام بحياة والدها العسكرية، عارفاً بأمور فن عصر النهضة الذي هو هوس أمها.

ما صدم كولين أنه لم يجر أي نقاش على صعيد العمل.. لكنها

تعرف أن أباها متمسك بالنظرة القديمة الطراز التي تقول إن على الرجل عدم مناقشة مثل هذه الأمور أمام السيدات، وهذا ما كان مثار غضب زوجته وابنته عادة.

لكن الضربة القاضية حلّت حين تحرك ناش مورداون ليغادر.. فقد أمسك يدها، وترك عينيه تجولان عليها من رأسها إلى أخمص قدميها.

قالت كولين لأمها فيما كان أبوها يرافق الضيف إلى سيارته:

ـ لا أفهم.. من هو؟

ردت تيسا مفكرة: «رجل في غاية الثراء». وتنهدت بطريقة غير عادية:

ـ وماذا في هذا؟

أملت كولين ألا تنتبه أمها للسخرية التي بدت في كلامها، لكنه أمل ضائع، فقد غاصت تيسا في مقعد:

ـ لا بعجبك.. أجد هذا غريباً.

تحركت كولين بقلق: «وهل هذا مهم؟ أنا...»

صمتت قليلاً ثم أردفت بأسف:

ـ كان عليّ البقاء في منزلي.. لم أقصد أن أكون فظة مع ضيفكما.. لو عرفت المزيد عنه..

وجلست صامتة.. فسألها والدها وقد عاد إلى الغرفة:

ـ عن ناش مورداون؟ ماذا تريدين من معلومات عنه؟

قالت عاجزة: «حسناً.. أي نوع من الشريك هو.. ومنذ متى تعرفه.. ولماذا...»

قاطعها بابتسامة متوترة: «إنه يترأس عدة مجموعات ضخمة من الشركات، لواحدة منها علاقة وطيدة بعملي.. لم أعرفه منذ مدة طويلة مع أنه مشهور. ليس فقط بسبب صيته الذائع بل بسبب أبيه.. ويجب أن أعترف أنه أعجبني».

فتحت كولين فاها لتقول إنها لم تسمع بالاسم من ذي قبل، لكن شيئاً ما في الطريقة التي ارتدّ فيها والدها عنها، أوحى إليها بأنه لا يريد الكلام في هذا الموضوع. فترددت وقالت: «أبي.. أنا آسفة..»

ارتدّ إليها، ونظر إليها متفهماً:

ـ لا بأس عزيزتي، لكل منا أخطاؤه.

ثم أضاف:

ـ ما رأيك بفنجان ساخن يساعدك على النوم يا فتاتي؟ أظنك بحاجة إلى شيء ما قبل أن تذهبي.

قادت كولين سيارتها إلى منزلها وهي تحس بعقدة الذنب، هذا عدا ذكر الغضب والارتباك.

كانت غاضبة ليس فقط من ناش مورداون ونظراته المهينة لها، بل من القدر الذي وجد من المناسب رميه في وجهها هكذا.. وهو القدر نفسه الذي جعلها من القلائل الذين لم يسمعوا باسم جوناش مورداون أو أبيه.

وجهت سيارتها إلى مدخل كاراج المجمع السكني الذي يحوي شقتها وأطفأت السيارة، ثم أسندت رأسها إلى ظهر مقعدها.. وقالت مفكرة لنفسها: أعتقد أن أفضل ما أفعله هو نسيان كل شيء.. لا يمكن إلغاء ما جرى.. أنسى؟ وهل نسيت أنني لم أتوقف لحظة عن التفكير فيه في الأسابيع الستة الماضية؟ أتظنين أن اكتشافك خداعه قد يغير ما تشعرين به تجاهه.

تمتمت بصوت مرتفع: «ولِمَ لا؟ فأنا لم أتعمد خداعه».

صمتت وهي تحس بالتورد المألوف يتصاعد إلى خديها وهي تفكر في عناقه الشغوف. ثم صرّت على أسنانها في محاولة منها لإحضار صورة لوكاس إلى عقلها.

لوكاس مديد القامة كناش ولكن جسده أنحل وهو ذو عينين رماديتين تومضان بفتنة عندما يتحدث عن حياته العملية التي يحبها بشغف.. فهو

باحث كيميائي..

ولكن ما استطاعت رؤيته في خيالها عينان لوزيتان ساخرتان باردتان، وإحساس غريب في قلبها.. وهذه إشارات تعرفها خير معرفة. ترجلت من السيارة بسرعة صافقة الباب خلفها.

في اليوم التالي تناولت كولين الغداء مع صديقتها ڤيوليتا آشلي المعروفة باسم «ليتا». كانتا في المدرسة معاً ولكن ڤيوليتا متزوجة الآن بمهندس يعمل أحياناً مع قسم الديكور الداخلي في المؤسسة التي تعمل كولين فيها.

بعد التحيات المعتادة والسؤال عن المنزل الذي تبنيه ليتا ونويل.. سمعت كولين نفسها تقول:

ـ ليتا، هل سمعت بشخص اسمه جوناش مورداون؟

ضاقت عينا ليتا مفكرة: «ومن لم يسمع به؟»

عبست كولين: «أنا.. علمت أن والده شهير أيضاً».

ـ أجل، ريتشارد مورداون.. كان سائق سيارات سباق شهير وعابث لا منازع له وقد بدد ثروة العائلة عدة مرات، وكان من حسن حظه أن رزق بابن تمكن من استرداد الثروة، خاصة بعد هرب الأب مع صديقته وزواجه بها.

رفرفت كولين عينيها عدة مرات: «كرري ما قلت؟»

ابتسمت ليتا: «أين كنت طوال هذه السنوات؟»

ردت كولين صادقة: «لا أستطيع أن أتصور هذا.. إنني أكره سباق السيارات ولعله السبب الذي جعلني لا أسمع به».

ـ حسناً.. بوصفي زوجة مجنون سيارات فأنا أنسب شخص لأعطيك ما تريدين من معلومات.. الواضح أن ريتشارد مورداون كان ينظر بازدراء إلى اهتمام عائلته بالتجارة، فانطلق بعدما ورث إرثه الكبير، وهو الابن الوحيد، إلى تبديد ثروته على السيارات السريعة والنساء، مع أنه كان

متزوجاً من امرأة أنجبت له ابناً هو جوناش. بعد موت زوجته أغرم ريتشارد بصديقة ابنه ناش.. ومن حسن الحظ أن ريتشارد لم يرث كل ما حققته عائلة مورداون صناعياً عبر السنين.. فقد كان له عمة عانس ذات بعد نظر لم تورثه حصتها بل أورثتها لابنه.. تقول الروايات إن ناش مورداون ضاعف تلك الثروة الصغيرة أضعافاً مضاعفة، وأصبح الآن أكثر ثراء مما كان والده يوماً. وتمكن من التشامخ عليه وعلى صديقته السابقة التي هي الآن زوجة أبيه..

صمتت ليتا قليلاً، ثم قالت بلطف:

ـ حبيبتي.. ستدخل فمك ذبابة إن بقيت فاغرة فاك هكذا.

أقفلت كولين فمها، ثم سألتها ليتا:

ـ أخبريني.. لماذا يأسر كل هذا اهتمامك؟

ـ أنا.. أنا.. التقيته مؤخراً.. هذا كل شيء.

ابتسمت ليتا: أعتقد على الرغم من الاختلاف البيّن بين الأب وابنه أن بينهما شيئاً واحداً مشترك، تأثير مدمر في النساء.

قالت كولين: إذن، هو يعشق ويهجر.. أليس كذلك؟

هزت ليتا كتفيها: «كان في حياته الكثير من النساء حسب قول الجميع.. ولكن لم تتمكن إحداهن من إيقاعه في شباكها.. كيف التقيت به؟»

ردت ببطء: «عبر والدي».

أنهت ليتا قهوتها: «كيف حال لوكاس؟»

ـ بخير!

تمتمت ليتا: «عظيم».

كانت تهم بقول شيء ما، ولكنها غيرت رأيها وقالت:

ـ ستأتيان معاً إلى حفلة تدشين منزلنا الجديد، أليس كذلك؟ لا أستطيع تحديد الموعد بالضبط ولكن ذلك سيكون بعد حوالي ستة

www.elromancia.com

أسابيع.. هذا إن لم يغير نويل رأيه ويقرر هدمه والبدء من جديد.

ضحكت كولين: «لن يفعل هذا..»!

ـ صدقيني يا عزيزتي إنه مهووس بجعله منزلاً كاملاً.

قالت كولين بحرارة: «وأنا أراهن أنه سيكون كاملاً».

نظرت إلى ساعتها ثم أضافت مبتسمة: «حان وقت عودتي إلى العمل على ما أخشى».

رفعت ليتا حاجبها: «خلتك تحبين عملك؟»

ـ أحبه.. أحبه.

لكن عندما عادت إلى وظيفتها المحببة اضطرت للاعتراف بأنها تشعر بالقلق حتى في العمل.. وهذا ما زاد من قلقها فهي تحب عملها فعلاً..

تمتمت: اللعنة عليه! لكنها توقفت عن التفكير في ما سمعته عنه لتوها.

فكرت: لم أنضم على الأقل إلى صف العشيقات المنبوذات، يبدو أن على المرأة الابتعاد عن هذه العائلة.. وأتساءل عما إذا كان هذا كله صحيحاً لكن ليتا لا تستسلم لإشاعات عابرة.. إنما.. هذا يبدو.. يبدو شاذاً. على أي حال، الأمر لا يعنيني.. والحمد لله.. ربما معرفتي بالنساء في ماضيه سيساعدني على النسيان.

مرت الأيام دون أن يحدث تغيير كبير في حالتها.. وكان هناك لوكاس لتتعامل معه، ليس كمجرد صورة ذهنية من الصعب استحضارها.

حضرت له العشاء في إحدى الأمسيات، واتفقا على قضاء يوم الأحد التالي معاً. أمضيا أمسيتهما بهدوء ولم يذكر فيها خطط الزفاف المتوقع، ولكنه عانقها مودعاً بحرارة غير عادية.. ووجدت أنها متأثرة بشكل لا يصدق ومستعدة للتفكير في الزفاف مجدداً، ووجدت أنها تحاول كذلك تحليل علاقتهما.

إنها تشعر بالأمان مع لوكاس، هذا أمر مهم لها. فهو يعرف كل شيء عن الأوقات العصيبة التي مرت بها مع خطيبها السابق ديك، لكن ما كان

يقلقها أحياناً هو سبب عدم ثقتها بأية علاقة جسدية.. مع أنه كان قانعاً بالانتظار حتى يتزوجا.. فكرت، أن هذا ما تتصوره عن تودد أبيها لأمها، وما تحمله زواجهما بكل تأكيد. وتابعت تفكيرها الثاقب: في الواقع هناك أشياء بشأن لوكاس تذكرها كثيراً بوالدها، طباعه، تربيته التي كان يفتقر إليها ديك..

إذن لماذا تحس أحياناً بهذا الشك؟ لماذا تحس أن هناك مخاطرة كبيرة في الزواج برجل لا تحبه حقاً؟ هكذا يجب أن يتم الزواج.. فإن كان هناك من يعرف مدى الخداع الذي قد يصل إليه الحب.. فهي أعلم الناس بذلك.

ثم هناك قناعة لوكاس الهادئة في أنه يحبها. ماذا دهاني؟ يبدو أنني على وشك أن أجن.. ربما تعاني العروس عادة من لحظات ذعر.. إن ناش موردون يمثل شيئاً حراً غير مقيد.. غير موقع.. وغير مختوم. أجل.. هذا جزء من الجاذبية.

ارتعشت فجأة وعادت للتفكير من جديد في لوكاس.

كان يوم الأحد حاراً ورطباً.. اتفقا مع بعض الأصدقاء على الذهاب إلى حفلة «رودبو» بعد الظهر في بلدة «نيرانغ».. ثم بعدما توجه لوكاس بها إلى منزلها قالت باندفاع فوري:

ـ خذني إلى منزل والديَّ، أظن أن السباحة في مسبحهما هو الشيء الوحيد المفيد في هذه الحرارة، ففي البحر ستكون الرياح شديدة.

غيّر لوكاس اتجاه سيارته بسرور، وسألته:

ـ أمتأكد أنك لا تريد السباحة معي؟ أضمن لك أن يقدما لنا المرطبات الباردة، وقد يطعمانا.

ضحك لوكاس: «يبدو هذا مغرياً.. لكنني وعدت أن ألعب لعبة اسكواش وقد أجلتها عدة مرات.. كما أنني بحاجة للتمرين».

ضحكت كولين: «من يسمعك يظنك بديناً!»

ـ الوقاية خيرٌ من قنطار علاج . . فالبدانة قد تصيب حتى النحيفين .

نظر إليها بوقار ولكن عينيه كانتا تومضان وراء نظارته . . فأحست كولين بموجة حب تغمرها وقالت بصوت أجش :

ـ أنت النحيف المفضل عندي . .

تغير لون عينيه ، فظنته سيوقف السيارة ولكنه أعاد تركيزه على الطريق ، وتابع القيادة .

كان في الطريق الداخلية إلى منزل ذويها سيارة رولز رويس زرقاء ، فعبست . .

توقف لوكاس قائلاً : «أهو شخص تعرفينه؟»

ـ لا . . ولكن إذا كانا هنا يوم الأحد فهذا يعني المرح . فأمي تحافظ على نظام متزمت يوم الأحد وإن استقبلت أحداً فهذا يعني أنها تستمتع بصحبة هذا الضيف . هل سنذهب إلى السينما مساء الثلاثاء؟

وبدأت تجمع أغراضها ثم نظرت إليه متسائلة ، فمال نحوها يلثم وجنتها :

ـ ولمَ لا . . ؟ أحبك كولين .

كان يوم الأحد يوم عطلة ستايسي ، فكان أن دخلت كولين إلى المنزل مستخدمة مفتاحها . . تعرف أن والديها والضيوف يقضون وقتهم قرب المسبح على الجانب الآخر من المنزل . ترددت قليلاً ثم وجدت أنها مغبرة مشعثة ، ومن الأفضل لها أن ترتب نفسها وترتدي ثوب سباحة .

ما زالت تحتفظ بغرفة نومها حيث فيها بعض الملابس . . الثوب الذي ارتدته كان من قماش مطاطي ذي لون وردي . . مشطت شعرها ، ثم حملت منشفة بيضاء ناعمة ، وخرجت من الغرفة .

كانت في منتصف الطريق نزولاً في الممر المغطى بالسجاد السميك الذي يقود إلى شرفة المسبح حين انفتح الباب الخارجي وسدَّ المدخل شخص طويل ، غير واضح الشكل وغير معروف تقريباً بسبب وهج

الشمس خلفه .

تقريباً . . إنما ليس تماماً . .

* * *

www.elromancia.com

٣ ـ على صفيح ساخن

ـ ماذا تفعل هنا؟

خرجت الكلمات قبل أن تتمكن كولين من إيقافها، مع أنها أوقفت سيرها وكأنها أصيبت بطلق ناري.

لكن ناش مورداون، لم يُظهر مثل هذه الدهشة. مع أنه توقف وقد استند إلى الباب يرفع حاجبيه متسائلاً، ثم شبك ذراعيه على صدره. لاحظت كولين أنه لا يرتدي غير شورت قصير كحلي اللون. تابع تأمل قدها الرشيق بصمت.

لعقت كولين شفتيها، وانتقلت من الصدمة والغضب المفاجيء إلى الإحساس بحرج أبله..

قالت: «أرجو عفوك.. إنها فظاظة مني.. ولكنني لم أتوقع.. أنت آخر من توقعت رؤيته..»

وصمتت، تكره نفسها لأنها واقفة هكذا عاجزة عن الإفصاح عما تريد قوله.

لوت ابتسامة خفيفة شفتيه، وكأنه قادر على قراءة أفكارها.

سأل برقة: «لم تتوقعي رؤيتي أم أملت عدم رؤيتي ثانية؟»

ردت وقد عادت إليها روح التحدي: «أجل.. هذا ما قصدته».

لكن كتفيها هبطتا، فالأمر كله مربك. علمت أن والديها سيكتشفان وجودها وهذا يعني أن لا طريق للتهرب.

استقام ناش مورداون، وتقدم إليها مباشرة حتى اضطرت إلى رفع رأسها لتنظر إلى عينيه اللوزيتين، بعينيها النجلاوين القلقتين..

تمتم: «أعتقد أننا مضطران إلى الاستفادة من وجودنا. أما.. سرك.. سرنا ففي أمان معي..».

ـ أي سرّ؟

وكادت تصبح إحباطاً بسبب سخرية عينيه:

ـ يومك الضائع معي كولين.. ذلك اليوم الذي نسيت فيه كل شيء عن لوكاس.. أليس هذا اسمه..؟ أجل. وهو شاب لطيف كما تؤكد أمك.. أيعلم مدى ضعفك أمام جاذبية العبث مع غرباء؟

ضاع جوابها لحسن الحظ بسبب دخول أمها التي وقفت مذهولة، ثم اندفعت بكلام غير مترابط:

ـ خلت أنني سمعت أصواتاً حبيبتي.. ولم أعرف أنك هنا.. يا لها من مفاجأة! ما ألطف هذا. ستتناول عشاء بارداً حول المسبح، وها نحن الآن أربعة.

صمتت وكأنها ساعة أنهت دورانها وبدأت تبطيء لتتوقف أخيراً.. عبست كولين.. فليس من عادة أمها أن تكون.. عاجزة.. أجل هذا هو الوصف المناسب.. أو أن يكون في عينيها نظرة توسل؟ يا الله.. يبدو أنني كنت أسوأ بكثير مما ظننت تلك الليلة، وأمي خائفة من إظهار المزيد من الفظاظة.. وهذا في عرفها ما لا يمكن التغاضي عنه خاصة أيام الأحد.

سحبت نفساً عميقاً متجاهلة نظرة الترقب في عيني معذبها.. أجل.. هذا ما هو عليه.. تمكنت من القول بإشراق:

ـ كم أحب أن أتناول العشاء معكم، وأنا أموت شوقاً للسباحة.. و..

توقفت قليلاً ثم أجبرت نفسها على القول:

ـ ربما عليّ أن أظهر للسيد مورداون الجانب الحسن مني.

نظرت إليه مباشرة ثم أردفت:

- يجب أن أعتذر عن تلك الأمسية.. كنت.. منحرفة المزاج.

فكرت بتحد: إفهم من هذا ما شئت، وابتسمت له.

رد الابتسامة: «ناديني ناش، كولين».

وتنهدت أمها براحة ظاهرة.

كان المسبح كالجنة. الشمس تغوص في الأفق، وأولى النجمات الشاحبة تبرق في السماء الزرقاء المخملية..

قال والدها:

- هذه هي الحياة.. هه ناش؟

كانت كولين بمفردها في المسبح، تنهدت بأسى وقررت أن الوقت قد حان للخروج من الماء فعليها أن تكون اجتماعية، أو أن تساعد أمها.. ولكن لم يكن سهلاً الخروج من المسبح تحت ناظري ناش مورداون.. مع ذلك حين نظرت إليه بطريقة غير مباشرة، وجدته مستلقياً على مقعد طويل، ينظر إما إلى كوب عصيره أو إلى أبيها.

لماذا هو هنا مجدداً؟ لقد توصل كونه شخصاً غير معروف بالنسبة إليها إلى مركز الضيف المكرّم.. لكنها اعترفت أنه بسبب وجود مكتب أبيها والمكاتب الرئيسية لأعمال مختلف أنواع التوابل المزدهرة التي أسسها جدها، والتي جعلت من اسم فوربز اسماً معروفاً في كل بيت من بيوت اوستراليا، فليس من غير العادة أن يتعاطى بأمور العمل والعقود من مكتبه في المنزل.. ومن الممكن أن يكونا قد أمضيا وقتهما هناك بعد الظهر.

لكن.. يوم أحد؟

مما يبدو.. أنهما معجبان كثيراً بناش مورداون.. عضت شفتها.. ثم هزت كتفيها.. الأمر لا يعنيها.. إنه غير مناسب أبداً، ومحرج! خرجت من المسبح تقول بحبور:

- السباحة رائعة فهي ما كنت أحتاجه بشدة. سأساعد أمي.

وصل صوت أمها من جهة المطبخ:

- ابقي حيث أنت كلودالين.. كل شيء جاهز..

ترددت كولين.. ثم جلست في مقعد، وتقبلت كوب عصير من أبيها.. أبعدت شعرها المبلل إلى الوراء وقالت:

- إذن.. أنت.. هل تعيش هنا على الساحل.. ناش؟

تسلل شبح ابتسامة إلى عينيه ورد بأدب:

- في الواقع، أنا دائم الترحال.. كالغجر.. والمكان الذي أدعوه بيتاً لي، لا أراه إلا قليلاً لسوء الحظ.

سألته بأدب مماثل: «وأين هو؟»

يا لك من جريء لأنك ذكرت عبارة الغجري!

رد باقتضاب:

- في «التويد».. أما الآن فأصبح لدي قاعدة على الساحل.

- ها كم...

إنه صوت أمها التي كانت تحمل صينية الطعام. مرت الساعتين التاليتين بلطف، وهم يأكلون الدجاج البارد اللذيذ، والسلطة، التي تبعها كايك الجبن، والمرطبات.

في الواقع، ذهلت كولين لأنها وجدت نفسها طبيعية، وتعتقد أن ناش مورداون سهّل عليها الأمور.. فمنذ مقابلتهما في الممر، وملاحظته عن التجوال، لم يرمقها بنظرات ساخرة. هكذا أصبح من السهل أن تفهم لماذا تعلق والداها بالصديق الجديد. فكرت: كما تعلقت به أنا.. وحبست أنفاسها، فللحظات نقلتها الذاكرة إلى «صخرة العشاق» في ليلة أخرى أضاءتها النجوم.

أغمضت عينيها قليلاً وهي غير قادرة على نسيان ذلك المساء الرائع، وكيف أنها وقعت فريسة لـ.. لمهما كان ما وقعت فريسته. إنه.. شخص

غامض.. رفعت أهدابها لتنظر إلى ناش.. ماذا يفعل هنا على أي حال؟ وكيف له أن يجعلها تشعر الآن بالراحة أو بعدم الاضطراب علماً أنه خدعها هكذا؟

ذكرت نفسها: نعم خدعها. توقفت عن التفكير للتساؤل عما كانت ستشعر به لو التقته ثانية في ظروف أخرى.

تنهدت مدركة أن الجميع يرمقونها بنظراتهم مع درجات متفاوتة من التسلية..

قال والدها: «تبدو هذه التنهيدة وكأنك تحملين ثقل العالم على كاهلك.. حبيبتي».

ردت: «لا.. أنا متعبة فقط».

ثم أضافت بفظاظة:

- أرجو ألا تظن أنني فظة مجدداً ناش.. ولكنني سأعمل غداً وعليّ العودة إلى شقتي الآن.

نهضت ثم قالت: أوه!

سألتها تيسا: «ماذا؟»

- نسيت.. لقد أوصلني لوكاس.. لكن لا بأس، سأتصل لأطلب سيارة أجرة.

وقف ناش موروداون قائلاً: «لا.. لا حاجة لهذا.. لدي عمل غداً باكراً لذا يمكنني أن أقلك في طريقي إلى منزلي هذا إن عذرني والدك».

فتحت كولين فاها، ولكن والدها سبقها إلى القول: «إنه لتصرف نبيل منك».

كانت السيارة الزرقاء الكبيرة تنضح برائحة الفخامة.. بدا أن فيها مساحات كبيرة من الجلد العاجي اللون، لكنها رغم ذلك شعرت بأن ناش موروداون قريب منها بشكل غير مريح.

قالت: «لم تكن مضطراً إلى ذلك».

قال موافقاً إياها الرأي: «لا.. لكنني اعتقدت أن هذا.. أمر عملي».

ران صمت مسافة ربع ميل، ثم نظر إليها وقال مبتسماً ابتسامة كسول:

- فهمت من النظرات القاتمة التي رمقتني بها تلك الليلة أنك تشعرين بأنني تعمدت خداعك ونحن في «يامبا».

تورد وجه كولين ليس فقط من الانزعاج، بل لأنه قرأ ما فكرت فيه..

قالت ببرود: «ولقد خدعتني».

سألها مفكراً: «لو عرفت هويتي لكنت أشد حذراً مني؟»

شدت كولين على شفتيها، ثم ردت:

- ما أراه الآن أن ما دعاك إلى إقلالي إلى منزلي هو أكثر من مسألة عملية.. ربما هي فرصة ذهبية لاستغلال وجودي معك.

ضحك بهدوء، لكنه قال بجفاء:

- ليس استغلال وجودك بالأمر السهل.. أظن أن لوكاس يعاني من المشكلة ذاتها.

ردت بجفاء: «دع لوكاس خارج الموضوع».

- إذن.. هناك «موضوع».

همست: «لا، ليس هناك...»

قال برقة:

- غريب قولك هذا، فما زلت أذكر طعم عناقك.

كانا متوقفين عند مفترق طرق تحكمها إشارات ضوئية. تطلعت كولين إلى الأمام، لكن اللون الفاضح ارتفع إلى وجنتيها مرة أخرى وأخذ عرق في منتصف عنقها ينتفض.

أردف: «كان سحرك...»

ولكنها سمعت ما فيه الكفاية.. فصاحت: «توقف!»

ووجهت إليه عينين زرقاوين ملؤهما العذاب:

- كان يمكن أن تكون مجرد مصادفة لك. كنا سنقضي ربما بضعة أيام

ثم نفترق. أنا.. أستطيع أن أفهم مشاعرك.. أعرف أنني تصرفت بشكل غير منطقي.. أعترف.. لكن ما كان عليّ التصرف على ذاك النحو.

رفع حاجبه لها، وانطلق بالسيارة بعد تغيير أنوار المرور. ثم ابتسم:

ـ بإمكانك شرح سبب تصرفك.. وفي الوقت نفسه شرح سبب تأكدك من أنها مجرد مصادفة عابرة بالنسبة لي.. فهذا افتراض غريب.

ـ بدوت وكأنك تتملص مما هو أكثر دواماً.

سرعان ما شعرت بالندم على قولها، وتساءلت أي شيطان شرير دفعها إلى هذا القول.

لكنه أجاب ساخراً: «قد يكون الأمر فقط أنني لم أجد الشخص المناسب».

نظرت من النافذة إلى الخارج:

ـ أنا.. إنها.. أوه.. اللعنة!

ـ أتعنين أن اللعنة كانت امرأة؟

صاحت به، لأنه كان يضحك مرة أخرى:

ـ أجل.. اسمع لا أنوي قول كلمة أخرى في هذا الموضوع. انعطف يساراً، شقتي في ذلك المبنى في آخر الشارع.. المبنى الطويل.

ساد الصمت حتى توقفت الرولز، وتهيأت كولين للخروج ولكنه مد يده ليمسك معصمها ويقول:

ـ آه لا.. لن تذهبي.. ليس الآن يا حلوتي.. ما دمت رفضت أن تشرحي لي فلا أرى ما يجعلني أتركك.

قالت من بين أسنانها، وعيناها تومضان بجمال مهيب:

ـ دعني أذهب..

ولكن غضبها لم يزده غير تسلية. أضاء النور الداخلي وترك نظره يجول فيها بطريقة مهينة وهو يقول:

ـ أجل.. يبدو لي أنه أحد أمرين.. إما أن تكوني أحد تلك الطيور

الجبانة التي تلاحق العاصفة.ثم تنسحب مذعورة.. وإما أن العزيز لوكاس لا يكفيك في أشياء محددة.

شهقت كولين ولكنه تجاهلها واستمر يقول مفكراً:

ـ وهذا ما يقودني إلى التساؤل عما إذا أصابك شيء يوماً ما جعلك تقررين زواجاً «عاقلاً» بشخص يتركك تشعرين كقطة على صفيح ساخن.

صدمتها كلماته صدمة جعلتها لا تفعل إلا التحديق إليه دهشة.. ثم لاحت ستارة حمراء من الغضب أمامها، وحاولت فعلاً أن تلكم ناش مورداون على فمه.

لكنها وجدت معصمها الآخر أسير قبضته:

ـ أنت.. أنت بغيض.. حقير.. أنت..

قال بهدوء: «دعيني أنهي كلامي. هناك الكثير من الزيجات غير الكاملة، ولكن الزواج بشخص غير مناسب بالنسبة لفتاة دمها حار مثلك قد يدفعها للذهاب إلى شيء آخر».

انهمرت دموع الغضب والثورة:

ـ أنا لست هكذا.. لو تعرف فقط..

ترك معصميها فجأة وقال:

ـ لكنني أعرف.

وضعت كولين يديها على خديها، وذهلت من الحالة التي وصلت إليها. إنها تبكي وترتجف.

همست متوترة فجأة: «أكرهك».

وأخذت تجمع أغراضها: «ليس هذا فقط.. ولكنني مسرورة لما فعلته بك. لم أسلمك نفسي ولله الحمد. ففي الواقع، كل ما فعلته أنني مرّغت كبرياءك بالتراب.. وهذا قليل مما تستحقه. إعلم أن ما يثير قرفي هو أن أفكر في أن تكون على علاقة بوالديّ.. أرجو من الله ألا تقع عيناي عليك مرة أخرى.. إنما لا تظن أبداً أنني سأترك كل شيء للصدف!».

فتحت باب السيارة، وألقت نظرة أخيرة ملتهبة عليه.. وكانت هذا غلطة.. فقد كان في عينيه اللوزيتين ما يوحي بالقول: سنرى! أحست بتوق إلى القول: «أوه.. لا.. لن نرى شيئاً!» لكن تلك النظرة ذهبت، فكان أن أقنعت نفسها بصفق الباب أمام تمنياته المؤدبة المتجهمة لها بنوم هنيء.

لكن لم تساعدها الصدف أو جهودها وهي تقف في مدخل البناء تطلب المصعد بنفاد صبر وبعينين ملتهبتين. في الواقع.. كان الأفضل لها لو ادخرت أنفاسها بدل التهديدات الفارغة كما قالت لها ربتة خفيفة على كتفها.

ارتدت فرأت ناش مورداون يمسك بمفاتيحها التي وقعت من حقيبتها عندما ترجلت من السيارة غاضبة.

قال محذراً وقد رأى تعبيراً صارماً على وجهها:

ـ لا تقولي شيئاً.

كان هناك مزيج من الغضب والتهور والغباء والكراهية، وإحساس غامض عميق بأنها تتصرف على نحو سخيف. وهذه المشاعر جميعها تجمعت وجعلتها عاجزة عن الكلام. لكنها حاولت انتزاع المفتاح من يده، وهذه غلطة أخرى.

أطبقت يده على المفاتيح، وقال برقة، وعيناه تبرقان خبثاً:

ـ أعصابك.. أعصابك.. عزيزتي كولين.. أتسمحين لمشاعرك دوماً بهذا الجموح الحر؟

أحست لبرهة بصعوبة قصوى في منع نفسها من الإجهاش بالبكاء.. ولكن الجهد الشديد تركها مرهقة.. فهوت كتفاها، وأغمضت عينيها..

فتحت عينيها بدهشة عند إحساسها بذراعيه تلتفان حولها.. وانفرجت شفتاها دهشة. ولكن لم يخرج منها سوى احتجاج خفيف. ولكن حتى هذا مات حين نظرت إلى عينيه نصف المغمضتين ورأت

الابتسامة تتراقص على شفتيه، قبل أن يضمها إليه ويختفي وجهه عن نظرها.

ما إن خف ضغط ذراعيه عنها حتى كانت ساقاها ترتعشان.. وكان عليها تحمل مهانة إبقاء ذراعه حول كتفيها وهو يدخلها إلى المصعد، الذي وصل ثم رحل، ثم عاد خلال العناق. أعطاها المفاتيح وارتدَّ إلى المصعد محيياً إياها تحية ساخرة صغيرة.

حدقت كولين إلى الباب الموصد.. وسحبت نفساً.

أدركت أن أحداً استدعى المصعد من فوق، وأنها للحظات لم تعد تذكر الطابق الذي تقع فيه شقتها.

لا.. لم أبادله العناق.. لم يكن الأمر هكذا.. لقد كان ماكراً ولم أكن مستعدة.. وهذا ما لن يحدث ثانية.

استيقظت في منتصف الليل، مرتعشة عرقة.. ففي حلمها عادت إليها ذكرى ذراعيه حولها، والإحساس به قربها.

في الصباح عرفت أنها تكره ناش مورداون أكثر مما مضى.. هذا إن كان من الممكن أن تكرهه أكثر من هذا.. تكرهه لأنه على الأرجح، قادر على إثارة الكثير من النساء بخبرته. لكن أكثر ما جعلها تكرهه هو انتقاداته المتعلقة بلوكاس. فكرت ببرود: سأقتله من أجل ما قال.

أمضت الأسبوع مستريحة تقريباً. في أحد الأيام كانت تتصفح صدفة القسم الاقتصادي من صحيفة في محاولة منها لإيجاد إعلان عن مزاد علني قيل لها إنه يعرض بعض التحف الأثرية المثيرة للاهتمام، حين لفت نظرها عنوان صغير يقول: «لغز البهارات».

كادت لا تقرأ المقال.. ولكنها عادت فقرأته ففيه يتحدث المقال عن مستقبل شركة بهارات كتم اسمها بحذر. عبست وفكرت في أن هذا يعني زوال منافس آخر من وجه شركة فوربز.

لكن ما هي إلا نصف دقيقة حتى خفق قلبها فجأة بصخب. وجف

حلقها إذ تذكرت أن والدها بدا متعباً بشكل غريب في هذه الأيام. تذكرت الطريقة التي كان والداها يتوددان فيها؟ أجل.. يتوددان جوناش مورداون، الرجل الذي له علاقة بالتجارة..

همست بعينين مذعورتين:

ـ لا.. أوه.. يا الله.. لا.. أرجو ألا يكون هذا صحيحاً!

قالت لوالديها برعب وهي تقف أمامهما وهما جالسان جنباً إلى جنب في غرفة جلوسهما الجميلة ذلك المساء، يمسكان بأيدي بعضهما بعضاً.

ـ لكن.. لماذا لم تخبراني؟

قالت تيسا بلطف: حبيبتي، أردت أن أخبرك. لكن والدك أحس.. لم يرغب في تحميلك عبء التفكير في هذا.. خاصة وأنت..

قاطعتها كولين بمرارة:

ـ مهتمة بنفسي.. لا بد أنني كنت عمياء.. أوه.. سامحاني.. أبي.. أمي..

بعد دقائق عاطفية استعادت كولين رباطة جأشها قليلاً وطفق والدها يشرح لها ما حدث:

ـ كان كل شيء تقريباً غلطتي.

ـ أبي...

ـ هذا صحيح كولين... لقد تماديت في بعض الأمور.. وظننت أن شركة فوربز قد تكتفي بالاعتماد على اسمها وسمعتها، ولكن قسماً كبيراً من السوق الآن، بات في يد شركات منافسة حديثة تعتمد على الاعلان.. ومنذ بعض الوقت وأنا أنفق رأسمال الشركة.

قالت كولين بسرعة: «هناك المنزل، وشقتي.. أي شيء..»

ـ كولين.. هذا ما نحاول فعله الآن. وهذا كل ما تبقى لنسدّد ما علينا إلى دائنينا لكنه لا يفي بالحاجة للخروج من هذا الانهيار بشرف وكرامة..

قفزت كولين واقفة: «لكن...».

قالت أمها برقة:

ـ حاولنا كل شيء حبيبتي. الجو المالي ضدنا.. إنما لدينا أمل أخير.. ناش مورداون. لم نخسر كل شيء بعد حبيبتي.. لو استطاع والدك إقناعه بتوظيف ما يكفي من مال لوقفت الشركة مجدداً على قدميها، ولحافظنا على اسمنا.

ارتعش صوت كولين: «كيف؟ أعني.. كيف وصلتم إليه؟»

قال والدها: تنتج إحدى شركاته زجاجات نستخدمها، وإلى هذه الشركة ندين بالكثير. وإن كان بإمكان أحد إنقاذ شركة فوربز، فهو القادر. ونحن نأمل أن يبدو له هذا عملية تخفف من خسارة شركته كذلك.

تأوهت كولين فقال والدها بلهفة: «حبيبتي».

فهمست: «ليتكما أخبرتماني بذلك في تلك الليلة التي جاء فيها إلى العشاء..»

ـ كانت تلك فكرة أمك.. ظننت أن هذا يقدمنا إليه كعائلة.

قالت تيسا بقلق: «طالما آمنت بسلطة الشخصية على الشكل البارد القاسي.. وأردت إخبار كولين يا سايمون، لكنك لم تسمح لي.. أرجو يوماً أن تدرك أن النساء في العائلة قادرات على تحمل كل عبء..!»

قال السير سايمون، وعيناه رقيقتان وهو ينظر إلى زوجته:

ـ أدرك هذا الآن.. لقد كنت رائعة!

ثم ارتد إلى ابنته:

ـ أما بالنسبة لك عزيزتي، فقد عوضت عن كل شيء يوم الأحد. لكن فلنبتعد الآن عن خداع أنفسنا.. في مثل هذه الأمور، سيكون التعامل مع الوقائع الباردة القاسية وأرقام الحسابات.

انتفضت كولين داخلياً وفكرت.. حقاً؟ ثم قالت:

ـ إذن.. لم يتخذ قراره حتى الآن؟

ـ لا، ولكنني أعطيته الضوء الأخضر ليفعل ما يشاء في المصنع والحسابات.. وقد وعدني بالقيام بشيء ما في غضون أسبوع.

ـ هكذا إذن.

نظرت أمها إليها بقلق:

ـ كولين.. ألن تبقي هنا الليلة؟ تبدين شاحبة حبيبتي.. ولكن، مهما يكن الأمر سننجو بطريقة ما.. قد نصبح من الغجر الرحّل ونعيش في خيمة رومانسية.

بقيت كولين معهما ذلك المساء ولكنها تمنعت عن قضاء الليل. في طريق العودة إلى منزلها، كان عقلها يتعذب.. فكرت مثلاً كيف لم يخطر ببالها أن والدها لم يرث ربما فطنة والده التجارية.. لماذا لم تتساءل عما إذا كان قلبه وروحه يميلان إلى عالم التجارة، أو النجاح، أو التوابل الفرنسية والبهارات.. ولكن، أسوأ ما في الأمر كان انشغالها بنفسها بحيث لم تفكر إلا في مشاكلها وذاتها.

ثم فكرت في ناش الذي ذاق منها إهانات كثيرة كافية لتسدّ الباب أمام والدها.

أكملت طريقها إلى الشقة والدموع تتدفق على خديها، وأكثر من علامة استفهام تطرأ ببالها.

***

٤ ـ ترويض النمرة

كانت غرفة الجلوس التي جلست فيها كولين في الصباح التالي هادئة الأثاث إنما فخمة. الباب الذي دخلت منه كان يحمل اسمه بأحرف من ذهب، مجرد النظر إليه كان كافياً ليجعل قلبها يخفق خوفاً.

ثم استغرقها بعض الوقت لإقناع موظفة الاستقبال الشابة بأن السيد مورداون سيستقبل الآنسة فوربز عن غير موعد سابق إن ذكرت له الاسم فقط.. مع أنها لم تكن متأكدة من هذا، ولكن الفتاة رفعت السماعة أخيراً وتحدثت فيها بتردد.

لم يغب عن ناظري كولين ملاحظة وميض عيني الفتاة ترقباً وهي تعيد السماعة، وتقول:

ـ سيراك السيد مورداون آنسة فوربز إن لم تمانعي في الانتظار قليلاً.

وهذا ما تفعله الآن، تتصفح المجلات التجارية ولا ترى منها شيئاً، وتزداد عصبية وتوتراً مع مرور كل دقيقة، لأنها تظن أنها مخطئة فيما تفعل، وتظن أيضاً أنه يتعمد إبقاءها منتظرة.

يعرف الآن أنك هنا وقد تبدين سخيفة إن تراجعت. ولكنك محظوظة لأنك فكرت في طلب إجازة اليوم كله.

لم يخفف شيء من إحساسها بالكآبة.. وأخذت تمسد تنورة البذلة الصيفية القطنية الرمادية التي ترتديها.

اختارت هذه البزة عامدة متعمدة، لأنها تظهرها عملية. وأملت أن

www.elromancia.com

تخفف من بعض الانطباعات الموحية التي يفكر ناش مورداون فيها.

لكنها كانت تعرف أن هناك ظلالاً تحت عينيها، وهي شهادة على عدم نومها ليلاً.. مع أنها لم تعلم أن هذا قد زاد من فضول الموظفة الشابة التي كانت تتساءل عن طبيعة زيارة كولين لرب عملها، أم لعلها قررت أن كولين مغرمة به؟.. ثم رن جرس هاتف داخلي خفيف قرب الفتاة فوقفت تقول لكولين بتعاطف إن السيد مورداون سيراها الآن.

لحقت كولين بها عابسة، ولكنها نسيت كل شيء ما إن فتحت الفتاة الباب وتنحّت جانباً:

ـ الآنسة فوربز.. سيد مورداون.

لم يقف ناش مورداون بل انتزع نظارة ذهبية الإطار وارتدّ في كرسيه وهو يراها تدخل إلى الغرفة. توقفت أخيراً وهي تشد راحتيها العرقتين فجأة إلى جانبيها..

ثم قال بجفاء:

ـ هذه مفاجأة كولين.. اجلسي.

جلست كما تعلمت أن تجلس، ظهر مستقيم، يدان مضمومتان بارتخاء، كاحليها متقاطعان، تنظر عبر الطاولة المليئة بالأوراق بينهما، لترى أنه كان ينتظر دون أي تعبير على وجهه.. ابتلعت ريقها، ثم بتنهيدة خفية صغيرة، قالت:

ـ لست أدري من أين أبدأ.

رد بسخرية:

ـ وهل عرفت يوماً؟

احمر وجهها قليلاً وعضت شفتها، تتساءل بسخرية، بدورها، أين ذهب كل توهجها. لكن هذا أمر مختلف، ومخيف.. إنه كمواجهة رجل مختلف كلياً. رجل العناق الذي سرقه منها، وتلقى رداً عليه لا يعني شيئاً.. كنت أعرف هذا.. ولكنني لم أكن أعرف نوع السلطة التي بإمكانه

ممارستها.. أما الآن فأعرف..

لعقت شفتيها وهو يرفع حاجبه ببرود منتظراً.. ثم قال:

ـ ربما أستطيع مساعدتك.. هل قرر والداك أخيراً اطلاعك على الوضع.

قالت بصوت مرتعش: «لا.. بل قرأت شيئاً في الصحيفة و.. واجهتهما».

ـ براڤو كولين! تقدمت خطوة إلى الأمام أيضاً.. جئت إلى هنا لتطلبي مني إنقاذ اسم فوربز. ما أشجعك! أيعلمان بوجودك هنا؟

سحبت كولين نفساً عميقاً مجفلة من هذا البرود الظاهر في عينيه وصوته.. قالت بهدوء:

ـ لا.. جئت فقط أطلب إليك ألا يؤثر ما حدث بيننا من عدم وفاق فيك.. فسيكون هذا..

قاطعها: «أتظنين أنني قد أتأثر بتصرفك الجلف والمهين معي؟»

ردت مترددة: «لا أدري ما أظن».

أدركت بإحساس بارد عميق أنها ارتكبت غلطة بمجيئها إلى هنا.

قال برقة: «أعتقد أنك تعرفين.. ألن تشعري بسعادة كبرى لو أشرت كم سأكون قاسياً لو أوقفت اتصالي المقرف بأبويك، على ضوء ما تعرفين الآن؟ أتعرفين.. لو جئت إليّ اليوم لتعرضي عليّ المتابعة معي من حيث توقفت في المرة الماضية لإنقاذ والديك من الإفلاس لفعلت هذا ربما.. ولا يعني أنني كنت سأقبل.. ولكنك لعبت اللعبة الخاطئة مرة أخرى حلوتي».

ـ لم أقصد أن يبدو الأمر كما جعلته...

ـ بل قصدت.

ردت بمرارة: «حسناً. وماذا لو قصدت؟ أما بالنسبة للعبة الخاطئة فأتخيل مدى اختيالك غروراً. وبما أننا نتناول هذا الموضوع أتساءل

www.elromancia.com

أنخرج من كل هذه الروائح برائحة الورد سيد جوناش مورداون، أيها الجوال المحترف الذي انقلب فأصبح قطباً تجارياً شهيراً؟ أتساءل منذ متى وأنت تستمتع بخداعي؟».

صمتت فجأة رافعة يدها إلى فمها، فقال مبتسماً:

ـ إذن، عدنا إلى هذه النغمة، ألم يخطر ببالك أننا معاً كنا مخادعين؟ وأن ما يناسب صورة الفتاة الثرية المسكينة، هو بناء حلم رومانسي حول رجل وجدته مخيماً في مكان ما؟

ـ لست فتاة مسكينة...

ـ أما قلت إنك تشعرين.. أنك مطوّقة، أعرف الآن أن لا علاقة لهذا بعائلة فوربز.. أما بالنسبة لوصف الفتاة المسكينة الثرية، فلماذا يخاف والداك إذن أن يخبراك الحقيقة عن الكارثة التي حلّت بهما؟

انتفضت كولين وتورد وجهها فأردف:

ـ ثم.. هناك لوكاس الذي لا يزال معلقاً بحبال الهوى.

استقامت كولين، وصرّت أسنانها:

ـ إن أنهيت ما تريد قوله فسأخرج.. ولكنك مخطىء في شيء واحد.. السبب الوحيد الذي جئت إلى هنا من أجله هو خوفي على والديّ.. فلم آت..

ابتلعت ريقها، وراحت تبحث عن كلمات، ثم نظرت إليه مباشرة، وقالت بهدوء:

ـ هل الوقت متأخر على التوسل إليك حتى تغيّر رأيك من أجلهما؟

لم يرد فوراً، بل تفرس فيها بوجه خالٍ من أي تعبير ثم ارتدّ في كرسيه لينظر من النافذة إلى الخارج قليلاً.

ـ ثمة طريقة واحدة للوصول إلى اتفاق بهذا الصدد كولين.

وارتدّ مجدداً لينظر إليها بعينين ضيقتين. أحست كولين بتحذير مجنون يستحوذ عليها، ثم فكرت: لا.. لقد قال إنه لن يفعل.. لكن

ماذا؟

سارعت تقول بلهفة:

ـ سأبيع كل ما أملك، شقتي والسيارة، والحلي...

التوت شفتاه: «أتظنين أن هذا قد ينقذ اسم العائلة؟ وكيف تعيشين؟»

هزت كتفيها: لست عاجزة كما يتراءى لك. لدي عمل يعيلني.

ـ وماذا تعملين؟

ـ أعمل في مؤسسة ديكور داخلي.

ـ وهل أنت خبيرة في الديكور.

ردت بجفاء: درست فن الديكور.. وماذا في هذا؟

ـ لا شيء! لكن ماذا تعملين حقاً؟

ـ أجمع قطعاً فنية للمؤسسة.. لدي سمعة بأن لي عين خبير وإحساساً بالقيم.

كانت تتحداه غير عابئة في أنها سمحت لشيء من العدائية باختراق دفاعاتها مرة أخرى.. لأن.. آه.. اللعنة..

ابتسم بلطف: «أمر جدير بالثناء كولين.. ولكن المال سيكون نقطة في محيط.. وعلى أي حال، لم يكن هذا ما أفكر فيه».

تحركت بقلق: «ليس لدي ما أعرضه غير ما ذكرت».

ـ ليس تماماً.. فلديك نفسك.

تسمّرت في مكانها، ثم قالت عبر شفتين جافتين:

ـ لا أظنني سمعتك بشكل صحيح.

رفع حاجباً: «بل سمعتني جيداً.. كولين».

انفجرت: «لكنك قلت.. قلت..»

ولم تستطع أن تتابع، فتراجع في كرسيه:

ـ كان ذلك أمراً مختلفاً.

ـ ماذا تعني..؟ أعذرني، إنما لدي انطباع بأننا نناقش أمر علاقة

www.elromancia.com

مخزية من أجل إنقاذ اسم عائلة فوربز.

لوى شفتيه، وعادت التسلية القديمة إلى عينيه:

ـ كلام صريح كولين..

هبَّت واقفة:

ـ لا.. ليس هكذا.. اللعنة! ماذا تعني إذن إذا كنت لا..

صمتت لأن كل عصب فيها كان يرتجف. ما تمر به كابوس لذا قد تبدأ في أية لحظة الصباح في وجهه.

سألت: «ماذا تعني؟»

ـ كنت أتحدث عن امتلاك.. قدّك الجميل بشرف يا عزيزتي كولين.. كنت أتحدث مقابل مساهمتي في إنقاذ اسم العائلة، عن زواجي بك.

ابتسم قليلاً وقد فغرت فاها.

أضاف: «إنها فكرة قديمة.. أتعلمين.. كانت البنات خاصة الجميلات منهن، نوعاً من صفقات المقايضة منذ قرون.. وكلما كن أكثر جمالاً كن أغلى قيمة».

نظرت إليه كولين ببلاهة، ثم تراجعت إلى كرسيها، لتقول بضعف:

ـ لا أصدق هذا.. أنا.. نحن لا نعيش في العصور الوسطى، وإن اعتقدت أن والدي قد يحلم.. قلت لك.. ليس لديه فكرة عن وجودي هنا.

هز كتفيه: «واثق بأن الفكرة سترعبه.. مع أنه قد يحس بالراحة إن عرف أنك.. آمنة.. لكنني فكرت أن تقومي أنت بالتلميح، هذا إذا كان إفلاس أبيك يعني الكثير لك».

أحست بالدوار فجأة وسألت:

ـ آمنة؟ مع رجل يبتزني لأتزوجه.. مع رجل لا أعجبه.. مع رجل يظنني شاذة مجنونة؟

قاطعها بتسلية ظاهرة: «في الواقع يا كولين، ربما عليّ أن أذكرك أن لديك ما أهواه».

وتوقفت عيناه اللوزيتان على وجهها ثم هبطتا إلى ثنايا قدها الرشيق.

قالت ساخطة ووجهها يحترق: «آه!»

ووضعت رأسها بين يديها:

ـ لا أصدق هذا.. على أي حال، أنا مخطوبة.

ـ هذا ما تدأبين على قوله.. على أي حال، لا أظن أن لوكاس وإن لم أقابله الشخص المناسب لك كولين.. ولكن سبق أن ذكرت لك هذا. لا تسأليني لماذا أنا مقتنع بهذا.. فالأمر واضح على ما أعتقد.

رفعت كولين عينين مغرورقتين بدموع خائنة:

ـ أكرهك.. لما قلته عن لوكاس.. إنه يساوي عشرة رجال منك.. إنه.. إنه ألطف رجل عرفته.. وأنا أحبه.

تلاقت نظراتهما وتشابكت.. حين تكلم ناش كانت لهجته مختلفة كلياً.

ـ ربما أسأت فهم الدفء والود.. وهذا ما لا أنكره.. ولكنه أمر مختلف عن الالتزام الحقيقي الكامل بين رجل وامرأة.

كتمت كولين أنفاسها، وأحست كأن سهماً نفذ إلى قلبها.. سهم الحقيقة؟

همست: «كيف يمكنك قول هذا؟ كيف يمكنك الحديث عن التزام حقيقي كامل، وأنت تحاول إجباري على الزواج بك من أجل الانتقام؟»

عاد إلى لهجته الكسولة:

ـ كولين.. أؤكد لك أنك في غضون ستة أسابيع من زواجك بي، ستنسين كل ما يتعلق بالانتقام والمقايضة.

ـ أوه.. ! من بين كل.. أوه!

أضاف: «أما بالنسبة للالتزام الحقيقي الكامل فلدينا أشياء كثيرة نبني

علاقتنا عليها. فكلٌ منا منجذب للآخر، ألم تشعري بالسعادة وأنت بصحبتي؟»

ـ ليوم واحد؟

ـ قد تحدث أشياء كثيرة في يوم واحد.

وضعت كولين يديها على رأسها عاجزة:

ـ لكن.. الزواج..

ـ لقد أشرت إليّ منذ مدة أنني تملصت منه طويلاً..

ـ لم أقل هذا..

رفع حاجبه بتساؤل: «فهمت أنك تشعرين بالمرارة بهذا الصدد».

ـ أنا..

وأقفلت فاها.. ثم حاولت مجدداً:

ـ لست.. لا يمكن أن تكون.. جاداً.

ـ لكنني جاد.

ـ لكن.. لن أفيدك بشيء..

وصمتت متوردة الوجه بسبب الابتسامة الصغيرة التي لاحت على شفتيه.

ـ حسناً.. ولكن.. حين يذبل.. هذا.. فماذا بعد؟

تمتم: «هذا إذا ذبل.. ستفعل ما يفعله معظم الأزواج، ممن لهم اهتمامات ثابتة يبعضهم بعضاً».

صاحت: «لكن.. ألا ترى.. ما هي الاهتمامات الثابتة التي ستكون لك حين تفقد اهتمامك بمشاطرتي الفراش؟»

قال: أوه.. حتى ذلك الوقت سيكون لنا على الأرجح عائلة.. وعندئذ ستحظين بالاحترام لأنك أم أولادي.

نظرت إليه غير قادرة على الكلام، فتابع:

ـ في الواقع، هنا تقع بعض الأشياء التي سأستفيد بها منك. تملكين

على الرغم من ارتباكك من الرجال يا عزيزتي كولين طبقة محددة، واسماً شهيراً يليق بها.. أما ماضيّ فلقد كان ملوثاً قليلاً.. وهكذا، يمكن أن أؤكد لك أن الاتفاق سيتم إن أحسنت لعب دورك..

قاطعته بضعف: «لا أصدق ما أسمع».

هز كتفيه، ونظر إليها بلا اكتراث نظرة تقول بوضوح: اقبلي العرض أو أرفضي.

ـ متى.. يجب أن أقرر؟

أشار إلى كومة الأوراق أمامه:

ـ في أسرع وقت.. أكره أن أشعر بأنني أقوم بكل هذا العمل من أجل لا شيء.

ـ لكن.. لولا مجيئي إلى هنا اليوم فماذا كنت ستفعل؟

ـ عزيزتي كولين، عرفت أنك آتية إن لم يكن اليوم...

ـ فلنقل إنني لم أعرف بالأمر إلا بعد اتخاذك القرار.

ـ لا يمكن أن تبقي جاهلة أكثر من هذا.

همست: «أنت تقرفني».

ضحك: «أتصور أوقاتاً أكثر إشراقاً بيننا كولين».

شدت على شفتيها اللتين أصبحتا خطاً رقيقاً. وسألت عبر أسنانها:

ـ ما هو أسرع وقت بالنسبة لك؟

نظر إلى المفكرة على طاولته:

ـ فلنرَ، على الرغم من أن هناك الكثير على المحك الآن، فمن حقك الترتيب للتفكير.. لماذا لا تدعيني إلى العشاء مساء الغد؟ بإمكاننا بحث التفاصيل.

أغمضت عينيها مجدداً، ولكن السبب في هذه المرة شعورها بأنها توشك أن تقع مغمياً عليها من شدة الغضب وعدم التصديق. بطريقة ما وجدت القدرة على الوقوف والقول بحزم:

www.elromancia.com

ـ جيد جداً.. فلنقل في السابعة والنصف؟

دار حول طاولة المكتب وصولاً إليها:

ـ جيد.. هناك شيء آخر.. من الحكمة لو ألغيت خطوبتك بلوكاس قبل القبول بالزواج بي.

ـ القبول؟

ـ سمي الأمر كما تريدين، لا يهم. قد يساعدك التفكير في اليوم الذي أمضيناه معاً بسعادة على اتخاذ القرار الصائب.

ردت وهي تبتعد عنه:

ـ أتظن هذا؟ ولكنني أفضل التفكير في المستقبل.

استند إلى مكتبه وعقد ذراعيه مفكراً:

ـ أخبريني عنه.

ـ عمن؟

ـ عن أول رجل مرّ بحياتك.. أعتقد أن هناك واحداً على الأقل، غير لوكاس.. والآن.. أنا.

عضت كولين شفتها: إنه ميت.. ولكنني لا أنوي أبداً التحدث عنه.. فهذا ليس من شأنك.

ابتسم ساخراً: «قد يصبح كل ما يتعلق بك شأنا من شؤوني.. قريباً».

همست: «أنا.. أنا.. آه.. اللعنة! دعني أخرج من هنا!»

ـ لا شيء يمنعك.. إلى مساء الغد إذن.

سار ليفتح لها الباب.

وقفت حيث هي مسمرة في مكانها، تنظر إليه بعجز. فردَّ النظرة بإبهام، ثم قال وهو ينظر إلى ساعته:

ـ لديّ على ما أخشى موعد آخر بعد عشر دقائق، أنا آسف كولين.. لكن..

سحبت نفساً عميقاً ثم نظرت إليه: أوه!

تجاوزته بدون أن تضيف كلمة أخرى رافعة الرأس ولكن هذا لم يمنعها من رؤية بسمته الجافة.

كانت الأمسية التالية خانقة رطبة، مع أن غيوماً كثيفة تلبدت فوق البحر منذرة بمطر منعش، لكن تلك الغيوم ظلت تلازم البحر.

في السابعة وعشرين دقيقة، وقفت كولين في غرفة الاستقبال في شقتها واثقة أن كل شيء جاهز.. وهذا كل ما كانت واثقة منه.. ولكن لماذا كان من المهم أن تقدم عن نفسها صورة كاملة؟

كانت ترتدي فستاناً عاجي اللون لا خصر له، قصير الأكمام، وعلى جيدها خطين من اللؤلؤ مع حجر كريم متعدد الألوان مربع الشكل، فيه لمسة نار زرقاء. ذهبت إلى المزيّن بعد الظهر وها هو شعرها الأسود يبرق تحت الأنوار كحرير سميك يحيط بوجهها، ويكاد يلامس كتفيها.. وكانت قد طلت أظافرها، ولكن لم يكن هذا سبب تطلعها الدائم إلى يديها، بل السبب هو خلو إصبعها من خاتم لوكاس.. وكلما نظرت إلى يدها، أحست بألم يطعن قلبها.

في طريق العودة إلى المنزل، استثمرت ثروة صغيرة على عطر جديد.. جديد بالنسبة لها ولكنه شهير جداً.. وبمبلغ غير كبير اشترت باقة أقحوان وردية.

صدمها في آخر لحظات أن هذه الصورة الرصينة عن نفسها كانت متنافرة مع شخصيتها ولكنها واست نفسها بأنها بحاجة ياسة للرصانة على أي حال.. ما لم تفعله هو تحضير خطة حقيقية للمعركة.. في الواقع، وعت جيداً أنها لم تستطع إجبار نفسها حقاً على التصديق بأن ناش موروداون ينوي حقاً إجبارها على الزواج. كانت تعيش على أمل أن تكتشف الليلة أن كل هذا خداع. نعم يجب أن يكون خداعاً..! بإمكانه الحصول على أية امرأة يريدها.. فلماذا هي.. ولماذا هكذا؟

تنهدت عندما أعلنت ساعة الردهة عن تمام السابعة والنصف. ثم دقّ جرس الباب، فسحبت نفساً عميقاً وحاولت مسح كل دليل عاطفي عن وجهها وهي تتقدم لترد.

وقفا للحظات يتبادلان النظرات ولكن كولين لم تدرك أنها لم تنجح في إزالة آخر لمحة عداء من عينيها الزرقاوين الرماديتين.. بدا ناش موروداون متزمتاً، غامضاً، يرتدي بزة سوداء وقميصاً أبيض.

ثم انتبهت إلى أن في يد يحمل علبة ذهبية الغطاء وباقة ورد أصفر في الأخرى.. فتمتمت:

ـ وورود! وهدية؟ ما ألطفك! تفضل.. أنت أول رجل يحمل إليّ شيئاً كهذا.

رفع حاجبه بسخرية: «كنت أظن أنني انضممت لتوي إلى صف طويل».

قالت مدافعة:

ـ أعني حمل الورد بيده بدل إرسالها.

ـ إذن أنا مغتبط لأنني فعلت هذا.. في السنوات التالية يمكننا أن نتذكر أن هذا واحداً من ا...

شدت كولين على شفتيها، وأخذت الأزهار والعلبة منه.

ـ تصرف وكأنك في بيتك، ريثما أتعامل مع هذه.

عادت بالورود في مزهرية، وكان واقفاً في منتصف غرفة الاستقبال، يحدق إلى المنظر الذي يزداد عتمة عبر الأبواب المفتوحة.. ارتدّ ما إن وضعت الورود على الطاولة، وعندما استقامت قال:

ـ تبدين مذهلة.. كولين.

ـ شكراً لك.. أتود احتساء شيء ما؟ أيمكن أن آخذ سترتك؟

ـ أجل. شكراً.

في اللحظات التي كانت فيها كولين مشغولة بهذه الرسميات نظر

حوله في الغرفة، ثم خرج من تأملاته وهي تقدم إليه كوب عصير بارد، قال: «رائع جداً كولين».

ـ شكراً.

قالتها بشيء من السخرية، ليس من أجل أن تظهر له أنها لا تحتاج إلى إعجابه، بل لأنه بدا لها وسيماً بشكل مزعج، وكأنه في منزله بقميصه الطويل الأكمام، وربطة عنقه المرخية.. قالت لنفسها لو كنت أعلم أنه سيأخذ راحته هكذا لتركته يختنق بسترته..

أخذ يلامس زهور الأقحوان الوردية باصبعه، فأحست أنه ينقل ملمسها الناعم البارد إلى أصابعها.. سأل: «هل أرسل أحدهم هذه لك؟»

ـ لا.. لقد اشتريتها لـ..

وصمتت فأضاف:

ـ لتبهجي نفسك؟

ـ أجل.

تأمل وجهها بصمت، ثم انزلقت نظرته إلى يدها، ورفع حاجبه ليقول برقة:

ـ هكذا إذن؟

ـ أجل.. أعني.. لم أشترها بسببك.

لوت ابتسامة خفيفة شفتيه:

ـ لماذا.. إذن؟

ارتشفت قليلاً من كوب العصير، ثم تنهدت:

ـ في النهاية.. هو من فعل لا أنا، جاء ليراني ليلة أمس.. وحين بدأت أقول له شيئاً ما...

صمتت ترفرف عينيها.. فقال بهدوء: أكملي.

ـ قال إنه كان يعرف منذ فترة أنني غير سعيدة و.. مرتبكة.. وأن السبب عدم استعدادي للزواج به.. ثم قال إنه يحلني من الخطوبة لأنه فهم

أنني لست له . . ليتك تعرف ما شعرت به وقتذاك . .

قال متجهماً: على أي حال . . أنا سعيد لحدوث هذا بهذه الطريقة فهذا يعني أنه يفهمك . . ولولا شعورك بأنك في ورطة لعمّت الراحة قلبك .

نظرت إليه بيأس تريد أن تخالفه الرأي . . فتمتم: «لِمَ لا تجلسين؟»

جلس قبالتها ومدد ذراعيه على مؤخرة الأريكة أما كولين فوجدت أنها تناضل لتحصل على المزيد من رباطة الجأش . . حدقت إليه في هذه المرة بريبة وتساؤل عاجز، كيف يمكن لها أن تساويه بذلك الرجل الغريب الذي انتزع الشظية من قدمها عند صخرة العشاق؟ .

سحبت نفساً عميقاً وهي تلتقي نظرته اللوزية . لكن . . لا . . أرجوك أبي . . لا، لا تدعني . . كيف لي أن أكون منجذبة إليه . . الآن؟

سألها فجأة: «أكنت تفكرين؟»

أجبرت نفسها على البرود:

ـ أنا . . أجل . . كنت أتساءل متى ستنهي هذه المهزلة .

ـ أية مهزلة؟

ملست كولين تنورتها . . ثم تمنت ألا يلاحظ ارتعاشة يديها .

ـ تلك التي أشرت إليها على أنها ورطة وجدت نفسي فيها . ألا تظن أنك حصلت على ما يكفي من التعويض منها؟

ـ تعويض؟ لا . . فالأمر ليس مهزلة كولين . . إما أن تتزوجيني وإما أن يفلس والدك . . وفي عرضي هذا ما أسميه صفقة . .

ـ صفقة؟ لا أستطيع موافقتك الرأي . ففي عرف أي شخص كان ليست سوى خطة انتقام لنفسك، ولإذلالي!

قال بكسل: «كولين . . لقد قلت كل هذا . . دعينا لا نكرر أنفسنا . أليس هناك موضوع جديد تودين خوضه؟»

أغمضت كولين عينيها، ورفعت يدها إلى فمها . .

ـ حسناً . لا أفهم سبب وجوب الزواج . ألا يمكن . . . أن تبتزني لأصبح . . عشيقتك؟

ابتلعت ريقها بصعوبة وأشاحت بوجهها ثم أردفت:

ـ قد يكون هذا أكثر إرضاء لك .

مال ناش إلى الأمام ونظر إلى كوبه، ثم رفع رأسه لينظر إليها نظرة شيطانية ساخرة:

ـ أتعرضين عليّ أن تكوني عشيقتي؟

قالت بسرعة: لا . . ولكن . .

انتظر قليلاً ثم ابتسم:

ـ فلأرَ إن كنت قادراً على قراءة أفكارك . هل خطرت ببالك هذه الفكرة كبديل قابل للتطبيق؟ هل تصورت أنك شهيدة في سبيل هذه القضية؟

همست: «توقف عن هذا!»

ارتدّ إلى الوراء:

ـ إذن، أنت لم تخططي لتعرضي عليّ هذا بل كان ذلك محاولة أخيرة للخلاص باقتراح ما هو أقل ديمومة . . وأنا سعيد لهذا كولين . كنت ستجدين صعوبة في التنفيذ .

توردت وجنتاها بجنون . . واسودت عيناها الزرقاوان الرماديتان بإحراج لأنه قرأ ما تفكر فيه . . ثم أحست برغبة غامرة تدفعها للإساءة إليه:

ـ أتظن أنك هبة من الله للنساء؟ كيف انخدعت بك؟

ضحك: «لم أرك تعترضين موهبتي . . مع النساء . . وأنا آسف إن كان الأمر يزعجك الآن . ولكنني أظن أنك ستكونين ممتنة في النهاية كولين» .

وقفت ساخطة: «أوه!»

وكانت آهة عدم تصديق ويأس:

ـ أنا.. فلتتناول الطعام قبل أن يصيبني الغثيان! أعتقد أن لا فائدة من التوسل إلى مشاعرك الشريفة.

قال برقة:

ـ هذا ما أخشاه.. هل لي بمساعدتك؟

ـ لا.

عبست فجأة وكادت تقول شيئاً.. لكنها غيرت رأيها واتجهت إلى المطبخ.. وفيما كانت تصب أول طبق تصاعدت إلى عقلها علامة استفهام كبيرة:

ـ هل هو جاد؟

طوال وجبة الطعام سار على منواله بالحديث السلس بعيداً عن التطرق إلى الخصوصيات.. ولكن ذلك لم يشعرها بتلك الراحة التي شعرت بها معه يوم صخرة العشاق. فكرت لو بقيت طبيعية لكان حظها أوفر في حل بعض الألغاز التي لا تفهمها عنه.. لكن ما إن سمعت تعليقه على الوجبة حتى أدركت أنها ما تزال تأمل أن يكون كل هذا مجرد حلم.

قال: «كانت وجبة عظيمة.. أنت مضيفة من الطراز الأول.. هل ذكرت لك أننا حين نتزوج سأزاول حياة اجتماعية أكثر خصباً مما عهدته حتى الآن؟»

نظرت كولين إليه من فوق طبق سلطة الفاكهة، فأردف:

ـ مع منزل كبير مناسب.. أعتقد أنك تفضلين العيش هنا بدل ملبورن أو سيدني؟

لعقت شفتيها: «أظن أنني أسمع صوت غليان إبريق القهوة.. هلا عذرتني لحظات؟ سنتناولها في غرفة الجلوس».

ـ طبعاً.

لكنها فعلت أكثر من تحضير القهوة.. توجهت إلى غرفتها لتجدد

زينتها وأحمر الشفاه ولتضع المزيد من العطر.. ثم أسندت جبهتها إلى المرآة تهمس: أرجوك يا الله.. لا تدع هذا يحصل لي!

كان جالساً في غرفة الاستقبال حين عادت حاملة صينية القهوة. صبت فنجانين من وعاء فضي أنيق وسألته إن كان يرغب في بعض الحليب مع القهوة، لكنه رفض.. أخيراً لم يعد أمامها ما تفعله غير الجلوس قبالته مرة أخرى ومحاولة تحويل أفكارها إلى كلمات.

ـ هل لي أن.. أطلب منك خدمة؟

حرك قهوته: «اطلبي».

ـ لو طرحت عليك بعض الأسئلة فهل تجيب عنها بصدق؟

ـ أجل.

ترددت، ثم انطلقت:

ـ هل هناك سبب محدد لكل هذا، أجهله؟

ـ ماذا تعني؟

ـ سبب محدد لزواجك بامرأة تكرهها بدلاً من.. امرأة تحبها.. امرأة تشاركها التزاماً حقيقياً كاملاً؟ أعني.. هذه كلماتك، لذا لا بد أنك تعرف أن من الممكن وجود سبب.

سألها ببرود: «كما كان هناك سبب يوم خطبك لوكاس؟»

تورد وجهها قليلاً، لكنها قالت بثبات:

ـ ارتكبت تلك الغلطة بنية طيبة أو ربما بحماقة، إنما كان هناك على الأقل محبة.. أما هذا.. ليس علينا أن ننفذ فكرة الزواج حتى. أرجو منك ألا تذكر لي اليوم التي قضيناه على صخرة العشاق مرة أخرى.. فلننظر إلى الأمر من زوايا أخرى. فأنا.. متعبة من التفكير.. أشعر كأنني طير خائف أو قطة على صفيح ساخن.

لوى شفتيه: «أعتذر على هذا التشبيه الذي سبق أن نعتك به».

نظرت إلى عينيه مباشرة، ثم تابعت:

ـ ألا تظن أنك قد تجد امرأة تحبها؟

صمت فترة، ثم قال:

ـ أردت مني أن أكون صادقاً.. لا.

ارتجفت كولين فلاحظ هذا.

تمتم: «أيزعجك هذا؟»

ـ أجل.. بل أجد من الصعب أن يتلاءم هذا مع... زواجك بي.

قال بهدوء: «أنا لا أدفع الناس غصباً».

عضت شفتها، ثم دهشت عندما سمعت نفسها تقول:

ـ ربما عبر ارتكاب أخطاء محددة.. تعبر عن مشاعرك الحقيقية.

ابتسم ببرود: «ربما.. إلا إذا دفنتك رمال مشاعرك المتحركة الخاطئة».

ـ إذن أنت غير مستعد للمخاطرة؟

ـ وأنت؟ يجب أن أقول لك إن أمك أخبرتني رواية مختصرة عن خطوبتك الأولى، كولين.. كان صائد ثروات اسمه ديك..

شحب وجه كولين، ولعنت أمها الحبيبة.

أردف بصوت هامس:

ـ ألا يمكنك القول إن لوكاس كان الضمان بعدم تكرار ما حدث سابقاً؟

ـ حسناً.. هذا ما يجعلنا متساويين.. كلانا خائف من الجرح مرة أخرى.. هل أنا محقة؟

هز كتفيه: «لا شك أنك سمعت بقصة أبي و..»

ـ إذن كان ما سمعته صحيحاً؟

ـ أوه.. صحيح على كل حال.. أنا آسف على تخييب أملك إن كنت قد تصورت أنني أعرضك لسخريتي من أجل هذا الموضوع.. فلقد تجاوزته منذ سنوات. كنت يومذاك في الحادية والعشرين، وكانت أكبر

مني سناً، وكنت بلا شك أمر بتلك المرحلة التي تكون فيها النساء الكبيرات في السن ساحرات.

ـ إذن لماذا كل هذه السخرية.. لا بد من وجود سبب، وإياك الإنكار!

ـ لن أنكر. أما السبب فأنا أعتقد أن هذا مجرد وهم.. فهناك تجاذب بين الرجال والنساء، صداقة، أما كل شيء آخر فوهم وخيال.

جلست كولين مسمرة لحظات، ثم وضعت رأسها بين يديها.. فتابع:

ـ ولهذا السبب، طلب يد عملي جاف، مع شيء من التجاذب الجسدي، يفيدني أكثر من ذاك الشيء الآخر.. وقد تتعجبين من عدد النساء اللواتي سيوافقنني الرأي.

همست بصوت أجوف: «يوافقنك الرأي؟»

ـ أجل.. فأنا أكسب الكثير من المال، وكن دائماً يتقدمن إلى بابي باقتراحات عمل.

رفعت رأسها، وقالت بفظاظة:

ـ لا يمكنك اتهامي بهذا.

ابتسم بلطف: «لقد جئت إليّ وفي رأسك شيء ما فهل تذكرين؟ وما كنا نتحدث الآن لولا امتلاكي المال لإنقاذ أبويك».

ـ ولكن الفكرة فكرتك!

فكر قليلاً، ثم قال بصوت ملؤه التسلية:

ـ أنت على حق. أتعلمين، أعتقد أنني كنت قد بدأت بالملل.. وكان تقدمك جديداً عليّ.. أستطيع بكل تأكيد أن أزيد بعض البهارات إن تمكنت من المتابعة هكذا.. لكنني أظن أن ما يروق لي فعلاً هو فرصة قلب الطاولات لأول مرة.

بدا لها غير جاد.. لا يمكن أن يكون.. فحاولت محاولة أخيرة

بالقول هامسة:

ـ أتؤمن حقاً أن لا وجود للحب؟ ألم يسبق أن رأيت شخصين متحابين بقيا على هذا الحب بعد سنوات من الزواج؟

نهض ليسير نحو أبواب الشرفة المفتوحة:

ـ بلى.. رأيت هذا مؤخراً.. في الواقع هناك الكثير من الحب الذي يجمع بين والديك، لكنه واحد بالألف. فلماذا لا تتوقفين عن المراوغة كولين؟ وقولي نعم.

ـ لأنني لا أستطيع تصديق...

ـ صدقي.. فأنا أنظر إلى الأمر على أنه مفاجأة من مفاجآت الحياة.. على الرغم مما مر بك من علاقات.. كانت حياتك ساحرة حتى الآن.. لكن القليل من الناس ينجون من مفاجآت الحياة. كم يعني لك والداك؟

أشاحت بوجهها بعيداً وفكرت في أبيها وهو يسمع أن آخر أمل له في الخروج بكرامة من الكارثة قد ولّى.. فكرت في أمها المشرقة الشجاعة، وكيف خذلتهما لأنها لم تعرف بما أصابهما عندما احتاجا إليها.. تذكرت أيام الأزمة بعد ديك، فعلى الرغم من مخالفتها لنصيحتهما، ساعداها بحب للملمة قطعها المتبعثرة.

قالت: «حسناً.. إن كنت تصف الأمر هكذا.. فنعم».

ـ عظيم.. ما رأيك بمزيد من القهوة الآن؟ يبدو أنك بحاجة إليها.

ـ أهذا كل ما تستطيع قوله؟

ـ وماذا توقعت؟ أن أجثو على ركبتي و..

ـ أوه..

هبّت واقفة، تتابع سيرها لتتجاوزه ولكنه أمسك معصمها:

ـ من ناحية أخرى، لولا تأكدي من إقدامك على المقاومة لاستطعنا أن نفعل هذا..

ترك معصمها وجذبها إلى ذراعيه. كانت عيناه اللوزيتان تلمعان

سخرية وهو يرى تعبيرها الساخط، ويحس بتوترها.. ثم أضاف بهدوء وشفتاه لا تكادان تتحركان:

ـ إنه نصف السحر الذي فيك كولين.. إنها السعادة التي سأحصل عليها.. في ترويض النمرة الشرسة..

همست: أنت.. شيطان خبيث.. ولا تتصور أبداً أنني لن أقاومك.

ـ لم أتصور هذا قط.. ليس منذ التقينا مرة أخرى.. إذن، قاومي يا عروسي الجميلة، فأنا لا أتوقع أقل من هذا.

أغمضت كولين عينيها واسترخت عامدة متعمدة بين ذراعيه. لكن جفنيها ارتفعا عندما سمعته يضحك بصوت منخفض. ثم حملها إلى الأريكة حيث أجلسها عليها، ثم جلس قربها عند الحافة. وتمتم:

ـ يجب أن أحذرك.. يصعب الحفاظ على هذه السلبية ضد عاشق ولهان.

تصادمت نظراتهما، أحست باللون الوردي يتسلل إلى خديها، وبدأت أطراف أعصابها تخزها، وكأنما تترقب ما سيفعله العاشق الولهان..

راقب كل هذا بعينين ضيقتين وبوجه متجهم متباعد متحفظ. أحست كولين بأنها تنكمش تحت ثقل ما أفصح عنه دون وجل، وكأنها زهرة ذابلة.

ثم قال، وعيناه اللوزيتان غامضتان كل الغموض:

ـ من حسن الحظ أنه ليس لدي الوقت الكافي الآن.. لذلك أنت آمنة الليلة.. فلا تظهري مثل هذه الكآبة.

أطبقت كولين شفتيها على شهقة يأس، وتساءلت عما إذا كان هناك ما تستطيع القيام به لطعن تعجرفه العفوي الفائق الرجولة..

سأل: «ماذا أردت أن تقولي لي؟»

أجبرت نفسها على التكلم:

ـ لا شيء.. عدا.. ما الذي سيحدث الآن؟

ـ نستطيع وضع بعض الخطط.

قاومت لتعدّل جلستها.. تأرجح شعرها إلى الأمام فرفعت يداً لتبعده إلى ما وراء أذنها.. لعقت شفتيها ونظرت إليه. كانت عيناها الزرقاوان الرماديتان مظللتين وخاليتين من أي تعبير:

ـ إذا شئت.. لكنني لا أعرف كيف نخبر والدي بكل هذا.

ـ لن نخبره فوراً، بل سنمهد له بالتدريج.. حتى يصبح أمراً واقعاً بعد توقيع كل الأوراق.

ـ وكم سيستغرق هذا؟

ـ ما يكفي من وقت.. هناك عقود يجب أن تحرر.. في الوقت نفسه قد تكون فكرة صائبة إقامة حفلة لإعلان الاندماج بيننا.. وبالإمكان إبراز.. فلنقل.. اهتمامنا الوليد ببعضنا بعضاً.

ـ أتعني.. البدء بتحضير المشهد؟

ـ شيء من هذا القبيل.

ـ حسناً.. لو سمحت أنا متعبة حقاً الآن.

تمتم: «لا أمانع أبداً.. أمامنا حياة كاملة.. سأتصل بك.. أحلام هنيئة، كولين».

تناول سترته عن المشجب ثم تركها.

ظلت كولين في مكانها وقتاً طويلاً، ثم نهضت وصبت لنفسها كوب قهوة من الغلاية الكهربائية، وعادت به إلى الأريكة حيث احتبت في زاويتها، لترتشف القهوة ببطء وتفكير.

لا أصدق أن هذا يحدث لي.. لا أستطيع بعد الآن إلا الاعتراف بأن هناك نوعاً من الافتتان الخطير به.

حدقت إلى الفراغ فترة طويلة ثم تابعت حديثها لنفسها: لكن.. لا بد من وجود طريقة للوصول إليه.. أوه.. يا إلهي ما أشدّ إرهاقي. إنه إرهاق يمنعني من التفكير السوي.

* * *

٥ ـ النحلة والعسل

بعد أسبوع كان عند وعده.

استأجر غرفة استقبال في فندق «غولد كوست انترناشنال» ورتب أمر حفلة كوكتيل، كان الهدف الأول منها إعلان الاندماج المقترح بين شركتي فوربز ومورداون.

وصلت كولين مع أبويها.. وكانت بثوبها الأسود الجميل، مرشحة لتكون في صحف يوم الأحد، وفي المقالات الاجتماعية.. بدا ناش مورداون مميزاً وسيماً. استقبلهم في ردهة الفندق.. منذ تلك اللحظة، حاول جهده أن يفتن تيسا أكثر.. ثم ألقى خطاباً ببساطة لم يذكر فيه أي تلميح لإنقاذ بل بدا وكأنه يتشرف بهذه الشراكة مع السير سايمون فوربز.

لم تستطع كولين إلا الامتنان بسبب الراحة التي شعر بها والداها، مع أنهما تمكنا من إخفائها عن الجميع. أسعدها أن أباها بدا أكثر نشاطاً، وقد تمكنا مدة ساعتين من التوقف عن القلق عليها بسبب فسخ الخطوبة مع لوكاس.

استغلت كولين الفرصة أيضاً لمراقبة ناش مورداون وهو ينشط اجتماعياً.. لم يكن الجمع كبيراً، ولكنه يضم مديري شركات إعلانات ومراسلي صحف في مجالي المال والتجارة، وفريق تلفزيوني، وبعض الممثلين القانونيين والمصرفيين.. خطر ببال كولين أنها لم تشاهد من قبل أي شخص يوفق بين كل هذه الاختلافات بين الأشخاص سوى زوجها

المستقبلي.. جعلتها الفكرة ترتجف..

كان كما لاحظت بأسر اهتمام النساء الشابات، إما بالابتسام أو بالنظر إليه خلسة إلا واحدة كانت حمراء الشعر كثيرة الحركة، حيته بوقار وفي عينيها نظرة تحدٍ. حين التفت كولين المرأة في غرفة زينة السيدات وجدت أنها تتلقى نظرات خضراء حاقدة.. فاستنتجت ما وراء تصرفها.

كانت الحادثة الأخرى الوحيدة عندما تقدم رجل طويل شديد النحول في بذلة فاخرة نحو ناش وربت كتفه بقوة، وقال بمرح:

- ما أروع أن أراك بُنيّ.. مرت عشرة أو خمسة عشر عاماً؟

- على الأقل.. ماذا تفعل هنا تشيسني؟

رأت كولين تغييراً في تعبير وجهه، وضيقاً في عينيه، وقسوة لا تكاد تظهر على فمه. نظرت إلى الرجل الآخر بدهشة، ووجدت أن مظهره يدل على أنه شخص مراوغ.

قال تشيسني: «أكسب لقمتي ناش.. أنا في مجال الإعلان هذه الأيام.. إذن أنت توسع أمبراطوريتك إلى «كوينزلاند» هه؟ لا ألومك».

التفت إلى كولين: «يقال إن الطيور هنا أجمل بكثير؟»

رد ناش بنظرة باردة حادة، لم تشاهد كولين مثلها من قبل، قبل أن يرتدّ متعمداً:

- لم يكن صديقك مهذباً يوماً تشيسني.

هز تشيسني كتفيه، وابتعد.

كانت اللحظة الحاسمة بعدما بدأ المدعوون بالانصراف إذ قال ناش لوالديها:

- لقد أقنعت كولين بتناول العشاء معي، فهل تمانعان إن انسحبنا الآن؟

كانت كولين تهيىء النفس لمثل هذه اللحظة، ما إن التفت إليها والداها حتى ابتسمت قائلة: «هذا صحيح».

- يمكنكما الانسحاب بالتأكيد.

تحدث السير سايمون واللايدي فوربز معاً ثم تبادلا النظرات والضحكات.

قالت تيسا ملوحة:

- هيا اذهبا.. سنهتم بمن تبقى من الضيوف!

أخذ ناش ذراع كولين وقادها بعيداً. نظرت إلى الخلف مرة فرأت أنهما كانا يتبادلان النظرات بطريقة تكاد تكون كوميدية في ظروف أخرى.

كان المطعم فخماً ومعتماً.. استقبل كبير السقاة ناش بالاسم، ثم تعرف إلى كولين فظهرت السعادة عليه:

- سيد موردون والآنسة فوربز.. يا لها من ليلة سعيدة!

ضحك ناش: «أرجو أن نجد لديك مائدة بعيدة عن الأضواء جيرارد».

- اطمئن بالاً. لدي ما تطلب. لن يعرف أفضل أصدقائك بوجودك هنا، كما لن يعرف به أي مراسل في قسم الشائعات إذا كنت ترغب في هذا.

- في الوقت الحاضر.. أجل، وربما سنرقص في وقت لاحق.

لم تقل كولين شيئاً حتى انتهى السقاة من فرش الغطاء الأبيض ووضع أدوات الطعام، وتقديم لائحة الطعام.

قالت:

- لا أفهم كيف لم أسمع باسمك من قبل.. من قبل أن..

- قبل أن تلتقي بي في المرة الثانية.. ألم تسمعي بي؟

- لا.. ثم اضطررت إلى «عصر» صديقة لأحصل على المعلومات عنك.

- آه.. هي مصدر معلوماتك عن أبي، كما أعتقد؟

هزت رأسها:

- زوجها مغرم بسباق السيارات، ألا تطمح بالسير على خطى والدك؟.

نظر إليها عبر شعلة الشمعة، ولاحظت وميضاً أخضر في عينيه: لا.

ابتسمت كولين وقالت: «هذه نهاية الموضوع؟»

- ليس والدي موضوعاً أهتم بالتفكير فيه. ولكن إن كنت تتساءلين أخبرك أنني تحررت من وهمه منذ كنت في السادسة. لقد ذاقت والدتي المر بسببه وجرني وراءه في كل مضمار سباق عالمي بصحبة فتيات ضاحكات مهتمات به.

- ومتطفلين مثل تشيسني.

ضاقت عيناه اللوزيتان، ثم قال:

- إنه بعد نظر منك كولين.

هزت كتفيها:

- وهناك الصهباء ذات العينين الخضراوين. هل لنا أن نقول إنها تعرفك من ذي قبل.. خطر ببالي في الواقع أن أتساءل.. كم سأصطدم بنساء.. سيدات مثلها.

- لتستطيعي شطب اسم كل واحدة عن اللائحة؟

- لا.. بل لأكون مستعدة.. هناك أغنية تقول: «على الفتاة أن تكون برعماً تتذوقها نحلة واحدة.. وعلى الرجل أن يعيش كالنحلة، ويجمع قدر ما يستطيع من العسل.. وأن يطير من برعم إلى آخر.. فعلى النحلة أن تكون حرة.. لكن البرعم لن يطير أبداً من نحلة إلى نحلة إلى نحلة» أهكذا سيكون زواجنا؟

لم تتحرك عيناه عن وجهها، فظنت أنها رأت وميض إعجاب فيهما.. وهذا ما أكده، مع أنه جعلها ترغب في ضربه إذ قال موافقاً:

- أنت في مزاج رائع الليلة كولين.. وأنا مسرور لأن بإمكاننا أن نسلي بعضنا بعضاً فكرياً.

قالت ساخرة: «لم ترد على سؤالي».

رد مفكراً: «أظن أن ذلك وقف على حالة زواجنا ومدى كماله. قد أرتكب بعض الهفوات، ولكنني عموماً أجد السعادة مع امرأة واحدة في وقت واحد.. لذا لا تنطبق عليّ نظرية النحل».

ابتسمت ابتسامة صغيرة ملؤها السخرية ثم قالت:

- ربما.. إن كان الأمر كما تقول.. ما أحاول حقاً الوصول إليه هو إن أصبح زواجنا غير كامل، حسب تقديرك ووجدت التبريرات التي تخولك أن تكون غير مخلص لي، فهل تسمح لي بالحق ذاته؟

رفع حاجبه: «وهل ترغبين في هذا؟ يبدو أنها نظرية تعاكس مبادئك عن الحب».

ضحكت كولين برقة: «هذا صحيح.. هل فكرت يوماً أنك تشبه أباك اللعوب أكثر مما تعتقد؟»

عرفت كولين بسبب الصمت الذي ران أنها أصابت منه وتراً.. أو على الأقل وجدت نقطة ضعف في دفاعات جوناش مورداون.. فللحظات بدا أن العالم كله قد تجمد وفي هذه اللحظات تصادمت نظراتهما، وجاء دورها لتتلقى نظرة باردة حادة قبل أن يشيح وجهه عنها. وعندما أعاد النظر إليها، كانت عيناه اللوزيتان صافيتين ولكن فيهما ما جعلها ترتجف، شيئاً من الشدة الغامضة جعلتها تظن أنها ستعاني الزجر بسبب ما قالته، واكتشفت فيما بعد أنها لم تكن مخطئة.

على أي حال، وفي هذا الوقت، قال لها:

- علينا أن ننتظر لنرى.. أليس كذلك؟ فأنا واثق أن وقتاً طويلاً سيمر قبل أن تفكري في جمع المعجبين حولك.

تمتمت كولين محافظة على أعصابها بصعوبة:

- سبق أن ذكرت لي هذا. أتعلم أن تقديرك للمرأة يوقع الاشمئزاز في النفس؟

ـ حقاً؟

ـ أجل.. فلسنا كلنا فاسقين مثلك..

ـ صحيح؟

ـ نعم. فالأمر في هذه الأيام بحاجة إلى أكثر من الارتباط بالأولاد وبمتاعب البيت.. وقبل أن أصل إلى هذه المرحلة، أنا واثقة أنني قادرة على الإحساس بأنني مسجونة في الفخامة التي تفكر فيها.

ـ كالسجين في قفص من ذهب. هل انتهيت كولين؟

نظرت إليه بدهشة، فأردف:

ـ لأنني أظن أنك قمت بما في وسعك بمقاتلتي بكل فخر الليلة.. استريحي فترة، فقد تكون معدتك ممتنة لهذا.

همّت بقول لم تلفظه بسبب وصول الطعام.. فكرت.. أعصابك.. أعصابك.. كولين! لا تكوني حمقاء.. فلن يجدي ذلك نفعاً..

التقطت السكين والشوكة وتنهدت.. المسألة أنني ما زلت أجد صعوبة في التصديق بأن هذا ليس كابوساً سأستيقظ منه عما قريب.

قالت: «حسناً.. اختر شيئاً نتحدث عنه».

ابتسم قليلاً: «فلنرَ، يليق بك اللون الأسود ويجعل بشرتك مثيرة الشفافية».

ـ شكراً لك.

ـ هل لديك ما تفعلينه في نهاية الأسبوع؟

ـ أنا.. لا.

ـ هل أخبرتك أنني أملك منزلاً في «تويد»؟

ـ أجل.. ذكرت لي هذا.

ـ أترغبين في رؤيته في عطلة الأسبوع؟

ـ وهل لدي خيار؟

ـ بيننا.. : اتفاق.. كولين.

ـ طبعاً.. ما أشدّ حماقتي لأنني نسيت. أجل.. سآتي معك.

نظرت إليه، وجهها شاحب وعيناها مظللتان متوترتان، ثم وضعت السكين والشوكة من يدها وطبق السلمون المدخّن، المأكول نصفه.

ـ أنا آسفة.. لكنك على حق في شأن معدتي.. يبدو أنها معقدة، أو أن فيها ما هو معقد.

أشار ناش إلى الساقي الذي سارع إلى رفع الأطباق، ثم تمتم له شيئاً عن تأخير الوجبة الرئيسية ونظر إليها:

ـ اشربي بعض المرطبات.

وهذا ما فعلت.. عندما احتست نصف الكوب شعرت بأنها استردت شيئاً من لونها. وقالت:

ـ آسفة.. أنا بخير الآن.

على الرغم من إجبارها نفسها على تناول معظم الوجبة المقدمة لها، وعلى الرغم من تجاوبها معه في الحديث، فقد لاحظ أنها تبذل جهداً، لذا لم يحاول إطالة وقت شرب القهوة، ولا اقترح عليها الرقص.

خاب أمل جيرارد لرحيلهما المبكر ولكنه لم يظهر شيئاً، بل انحنى لهما مودعاً بكل وقار.

أطلقت كولين تنهيدة مع انطلاق الرولز الزرقاء باتجاه «ماين بيتش» لكن أمد راحتها كان قصيراً، إذ أوقف ناش السيارة، ودار ليساعدها على الترجل فعرفت أنه ينوي الصعود معها إلى الشقة.

فكرت في قول شيء ما، ولكنها لم تستطع إيجاد ما هو غير طفولي.. أحست كذلك بالإرهاق والتوتر الشديد.. أخذ مفتاحها منها وفتح الباب، وتراجع إلى الوراء تاركاً إياها تدخل. ترددت قليلاً ثم سارت إلى غرفة الاستقبال حيث أضاءت مصباحاً أرسل بركة نور وردي ناعم. رمت حقيبتها على طاولة ذات سطح زجاجي وقالت بفظاظة أول ما بدا أنها قادرة عل قوله:

www.elromancia.com

ـ والآن.. ماذا؟

تقدم إليها يمسك ذقنها بيده. وكرر:

ـ ماذا الآن؟ أظن أن من واجبي كوني زوجك العتيد أن أريحك كولين.. هكذا..

أصدرت صرخة احتجاج، ولكنه تجاهله.. وتحركت متشنجة بسبب ما رأته في عينيه.. وعرفت فجأة أن مقاومته ستكون عبثاً، وأنه سيتغلب عليها بسهولة.. وأن هذا سيكون انتقامه.

لكن لا بد من وجود طريقة لمقاومة هذا.. أخذت تفكر وهو يجذبها بين ذراعيه، إنها ترفض أن يعاملها أحد هكذا..

اكتشفت فيما بعد أن تمنياتها كورقة في مهب الريح أمام القوة التي اختار أن يمارسها عليها.. أخذت أصابعه تداعب شعرها بلطف، فأزال ذلك توترها وبدّد ارتباكها. لاحظت أن جسدها استراح عليه وأن رأسها وجد له وسادة على صدره..

أوه.. يا الله.. إنني أنسى هذا دوماً.. كيف لي؟ يجب ألا أستسلم..

ربما كانت أفكارها المعذبة تنعكس في عينيها، لأنه ابتسم ابتسامة ضعيفة باردة قبل أن ينحني ليعانقها.

كان عناقاً لم تستطع إبعاد نفسها عنه لإنهائه.. ولم تستطع سوى أن تتقبله وكأنها مخدّرة. عادت ذكريات عناقه الأولى إليها فتذكرت كيف غردت روحها له.

لكن، إن كان هناك بصيص من أمل بدا في عينيها فقد سارع إلى إطفائه بقسوة:

ـ لترين الآن أنك تتفوهين بهراءات كثيرة كولين؟

أغمضت عينيها للحظات ثم دفنت وجهها في كتفه.. وهمست: «أجل».

رفعت بصرها فرأت أن وجهه جاف صارم. ووجدت أنها تتمسك بصدر سترته الجميلة التفصيل، وكأنها فتاة مراهقة.

فتحت يدها، ووضعت ظاهرها على قدها ثم أردفت: أنا.. أجل..

تركها فجأة: تصبحين على خير إذن. آتي في العاشرة من صباح السبت لاصطحابك.. بإمكاننا ساعتئذ البدء من جديد بعلاقتنا، علاقة الحب والكره.

راقبته يخرج، ثم ترنحت وهي تتجه إلى غرفة النوم لتجلس على سريرها حيث ضمت يديها وعضت شفتها بقسوة تكاد معها تنزل الدماء منها.. فقد ثبت لها أخيراً أن جوناش موروداون غير واهم.. لأنه سيتزوجها مهما كلف الأمر.

لم تكن الطريق إلى «تويدهيدز» مثيرة للاهتمام، إذ لم تكن الشواطىء السياحية ظاهرة للعيان من الطريق العام. كان هناك مراكز تسوق مكتظة على طول الطريق، وحركة سير دؤوب ولكن كولين سبق أن قادت سيارتها على هذا الطريق مراراً بحيث باتت لا تهتم بالتفرج على ما يحيط بها.

لكن كان عليها أن تعترف أنها لم تسافر على هذه الطريق من قبل في سيارة فخمة، زرقاء، رولز رويس مكشوفة ذات غطاء جلدي عاجي. فكرت مرة أين يترك اللاندروفر العتيق.

كانت تعاني من أعصابها الملتهبة التي لم تتحمل محنة الأيام الفاصلة جيداً.. في الواقع، لزمها إرادة لئلا تفعل أحد أمرين: الاعتراف لوالديها بالورطة التي هي فيها، أو الفرار من البلاد.. وما ساعد أعصابها على الهدوء، منظر معذبها في العاشرة من صباح هذا السبت. كان وسيماً يقف أمام بابها الأمامي مرتدياً سروالاً من الجينز وقميصاً قطنياً أبيض. يبدو حليقاً، ولكن، في عينيه اللوزيتين ذلك التعبير الكسول الغريب وكأنه لم يستيقظ منذ وقت طويل.

وهذا صحيح، فقد وصل إلى منزله من رحلة عمل إلى «ملبورن» في

وقت متأخر من الليلة السابقة، وتأخر في الاستيقاظ.

ولأن سقف السيارة الجلدي كان مقفلاً، ولأن ازدحام السير كان يؤخرهما بصورة مستمرة.. أحست كولين بأن الأنظار تتجه دائماً إليهما، مما دفعها إلى القول عند ضوء أحمر على الطريق:

ـ يعتقد والدي أن هذا النوع من السيارات مثير للمتاعب أكثر مما تستحق. فالناس يستمتعون في خدشها، ومحاولة سرقة علاماتها المميزة.. كما أنها غالية الثمن بشكل جنوني في أوستراليا.. وليست سوى رمز للثراء.

رد ناش: «هو على حق، لكنني لا أملك جياد سباق أو يخوت.. ولا أميل لشراء القصور أو المنازل الريفية.. وليس لدي عشيقة تكلفني غالياً، وليس لي طائرة خاصة.. لذا تصورت أن من حقي أن أمتلك واحدة.. وهناك أمر آخر إن هذا النوع من السيارات استثمار جيد، فهي تحافظ على ثمنها وقيمتها أكثر من أية سيارة أخرى. أما بالنسبة إلى رمزها، فهي تحمل نوعاً محدداً من المنزلة الاجتماعية».

ـ كنت أتردد في ذكر هذا.. وبمناسبة الحديث عن المنزلة الاجتماعية: هل تعتبرني رمزاً طبقياً أم استثماراً جيداً؟

فكر قليلاً: «كلاهما.. وأظن كذلك أنك تبدين رائعة والريح تعبث بشعرك. وهذا أمر هام مع مثل هذه السيارة، فقد تفسد فتاة تضع منديلاً على رأسها الصورة».

صرّت كولين على أسنانها سراً.. فقد توصلت إلى اتفاق يقضي بعدم جر نفسها إلى الطعم الذي يلقيه، مع ذلك ها هي تخالف هذه القاعدة بسرعة، لذا أقسمت أن تكون صماء بكماء في الفترة القادمة.

ولكن لم يزعجه هذا إذ تابع القيادة براحة كاملة.. وكأنه غافل عن كل ما يثيره وجودهما معاً.. ولكن ما إن انعطف إلى طريق «تويد هيدز» مخلفاً ازدحام السير وراءهما حتى ضاعف السرعة فراحت السيارة تنهب

المسافات بسرعة تخطف الأنفاس.

تقع بلدة «تويدهيدز» السياحية على تخوم «كوينزلاند».. ولكن ما إن تتركها وتتجه إلى الداخل، حتى يستولي سحر النهر على كل شيء، وعندئذ تمتد الطريق وتلتف حول ضفافه العريضة الهادئة ثم تنفصل الطريق عن الطريق العام قرب «تومبلغم» القرية الصغيرة الساحرة، ثم تقطع النهر من فوق الجسر.

كانت مسافة شديدة الانحدار قطعتها السيارة الكبيرة بسهولة وسرعة، وما هي إلا مسافة قليلة، حتى انعطفت عن الطريق ودخلت عبر بوابة ذات عامودين أبيضين.

سألت كولين وهي تنظر حولها: أهذا هو المكان؟

ـ أعجبك؟

توقفت السيارة على مقربة من مزرعة قديمة.. ولكن المنظر والموقع أسراها بعض الوقت.

قالت بصوت هامس: «أوه!»

كانا فوق تلة صغيرة، تشرف على منظر النهر وعلى بلدة «موروبلمباه» القابعة تحت أقدام جبل «وارتنغ».. تلة تشرف على طول مجرى النهر الذي يشكل الحدود ما بين حقول قصب السكر.. وهي على ما يبدو، تلته الخاصة.

ارتدت أخيراً إليه: «إنه منظر لا يصدق».

ـ أنا مسرور بقولك هذا.

في صوته ما جعل عيناها تضيقان، ما حرك وتراً حساساً فيها، لكنها لم تستطع وضع إصبعها عليه. صبَّت اهتمامها على المزرعة والمنزل، الذي لم يبدو قديماً بل حديثاً، مبنياً من خشب الأرز الأحمر الذي تحوّل بفعل الريح إلى لون فضي رمادي. كان يشبه الكوخ، فهو مؤلف من طابقين وله نوافذ بارزة وزوج من المداخن الحجرية، وشرفة ملتفة، كان

هناك شرفة حجرية مسقوفة تحت الشرفة الأمامية، فيها موقد حجري. لم تر حديقة رسمية بل مساحة مسطحة من المروج، فوقها عدة دجاجات ملونة تلتقط الحبوب باطمئنان.

خلف المنزل اسطبل، وما بدا مرسم فنان.

سألته وهو يفتح الباب لها: «هل ترسم؟»

تبع نظرتها.

- لا.. هناك تعيش فيفي.. إنها نحّاتة رائعة.. لذا أمنت لها مكاناً خاصاً.. لا شك أنها في مكان ما.

- فيفي؟

- إنه اختصار لاسم ڤيڤيان الذي أطلقه عليها والدها. وهي تعيش هنا.. ومقابل «الاستديو» تعتني بالمنزل والمكان.

بدت الدهشة والارتباك على كولين:

- بمفردها؟ ألا تشعر بالوحشة؟

- تحب فيفي الوحدة من وقت إلى آخر. ولن تبقى هنا إلى الأبد.. ها هي.

انفتح باب جرّار على الشرفة وخرجت منه امرأة طويلة جذابة ذات شعر أسود قصير جداً. فيما كانت تقترب، لاحظت كولين أنها في الثلاثينات من عمرها، جسدها نحيل رشيق. ترتدي سروالاً قصيراً أزرق اللون، وقميصاً وردياً. بدت عيناها زرقاوين تشعّان ذكاء.. فاستيقظ شيء من الشك في رأس كولين.

ثم أخذ ناش يقوم بواجب التعارف. تلقت كولين نظرة تقويم من رأسها إلى أخمص قدميها قبل أن تقول فيفي بحرارة:

- أهلاً بك كولين.. ناش على حق.. أنت جميلة فعلاً!

تورد وجه كولين، ولم تستطع إلا التمتمة:

- كيف حالك؟

ولكن فيفي اكتشفت ارتباكها، فأردفت تقول إنها حضرت لهما الغداء، وإنها هيأت أيضاً كل شيء من أجل شواء العشاء ثم طلبت من كولين أن تستدعيها متى احتاجت إلى أي شيء كان.

سأل ناش: «ألن تنضمي إلينا للشواء؟»

- ليس الليلة.. فأنا غارقة في إلهاماتي الآن. ولكن إن أردتما الصحبة في غداء الغد، فستجدانني.

وسارت مبتعدة بخطى بطيئة نحو الاستديو تلوّح بيدها بود.

قال ناش مبتسماً: «لا تتغير فيفي أبداً.. هل ندخل؟»

حمل حقيبتهما إلى الداخل وهناك عاد التأثر إلى كولين.. فالمكان من الداخل أجمل بكثير: الجدران مغطاة بخشب الأرز، لكن في هذه المرة بلون عسلي دافىء.. والأرض كذلك. يتكون الطابق السفلي من ثلاث غرف: غرفة استقبال مفتوحة وغرفة طعام وقسم المطبخ عند منعطف.. ثم درج خشبي يؤدي إلى غرفة نوم وحمام.. وثمة أريكة أمام الموقد الحجرية، وطاولة طويلة، وكراسي خشبية محفورة قديمة الطراز.. لم تكن غرفة النوم كبيرة ولكن لها مدفأتها الخاصة وسرير نحاسي القوائم.

كان الطابق العلوي أجمل من السفلي. فيه علية حقيقية وغرفة واحدة كبيرة ونوافذ تنفتح إلى الخارج ومقاعد حول النوافذ البارزة..

سمعت كولين نفسها تقول بصدق وهي تعود إلى الطابق السفلي.

- إنه ملاذ حقيقي للراحة.

- شكراً لك.. هذا ثناء مميز لأنه يصدر منك..

- ولكنني أعني ما أقول.

رفع حاجبه متسائلاً بسخرية فقالت:

- أنا أعني ما قلت فعلاً.

- هل أفهم من هذا أن مزاجك السيء هذا الصباح قد اختفى؟

مررت أطراف أصابعها على درابزين الدرج، وأحنت رأسها ليخفي

شعرها وجهها ثم قالت بهدوء:

ـ لو كنت مكانك لما أخذت شيئاً مؤكداً عني.. لأنني أحاول قضاء كل لحظة بلحظتها.

ـ حاضر سيدتي!

رفعت رأسها ونظرت إليه بثبات، فأردف:

ـ هل لنا أن نتناول الغداء؟ لا أدري شيئاً عن جوعك ولكنني أتضور جوعاً.

كان الغداء الذي حضرته لهما فيفي رائعاً بالنسبة ليوم حار وهو مؤلف من شرائح لحم بقر باردة مع سلطة الجرجير والفجل، والهليون الطازج، والطماطم والبيض المسلوق. أما التحلية فطبق مليء بالتفاح والبرتقال والعنب ثم صنع ناش الشاي.

بعد ذلك قال: «لماذا لا ترتدين ثوب سباحة تحت الجينز؟ هل تجيدين ركوب الخيل؟»

هزت كولين رأسها إيجاباً فأردف:

ـ أترغبين في الركوب حتى النهر والسباحة هناك؟

هزت رأسها مجدداً:

ـ إنما سأنظف المكان هنا أولاً.

ـ ستشكرك فيفي على هذا إذ تحضّر منحونة الآن. سأغير ملابسي وأحضر الجوادين.

سمعته يتحرك فوق. بعدما أنهت تنظيف المائدة، توجهت إلى غرفة النوم في الطابق الأرضي حيث وضعت حقيبتها، وأقفلت الباب وراءها.

أفرغت منها بعض الأغراض وارتدت ثوب سباحة ورديا وفوقه ارتدت الجينز، وربطت شعرها إلى الخلف..

قالت وهي تمضغ ساق عشب ندي:

ـ هذه هي الجنة.

كانت السباحة منعشة، والنزهة على الجياد مرضية، ليس فقط بسبب المناظر، بل بسبب مطيتها التي كانت فرساً كستنائية حسنة الأخلاق تدعى ماريون. تأثرت بمنظرها حالما رأتها:

ـ أوه.. أليست جميلة؟

هز ناش رأسه وساعدها على الركوب.. وظلّ يراقبها بحذر من فوق جواده البني المرتفع في الدقائق الأولى ثم اقترب منها ليتمكن من الإمساك بلجام فرسها فيما لو وقع خطب ما.

أخيراً قالت كولين له ساخطة:

ـ لا حاجة بك إلى مراقبتي على هذا النحو. قلت لك إنني أجيد ركوب الخيل.. كما أن بإمكان أي إنسان امتطاء هذه الفرس فما أسهل التعامل معها!

قال: «لكن قد يفشل أي إنسان آخر، فهي تستجيب للركوب السيء واليدين الثقيلتين كأية أنثى أخرى.. لكنك ناجحة معها..».

وتحرك مبتعداً.

تمتمت كولين لماريون أنها لم تصدق كلمة مما قال.. أوليس الذكور متشابهين؟ ثم سيطرت عليها لذة الركوب.. وها هي الآن مستلقية على منشفتها، غير قادرة على عدم الاستمتاع بهمسات النهر الهادئة..

قالت لنفسها: إنني مجنونة.. فأنا على وشك دخول أخطر حقبة مجهولة في حياتي، ولم أستطع حتى الآن الوصول إلى خطة عمل، لكنني أستمتع بتغريد الطيور وبأزيز النحل..

جلست تنظر إلى ناش، الجالس على منشفة وذراعاه على ركبتيه، يحدق إلى الماء. كان شعره مبللاً منسدلاً على جبهته. قال لها فجأة: «حدثيني عن خطيبك السابق».

شدت كولين شفتيها أما ناش فنظر إليها بثبات، ثم أردف بعفوية:

ـ لا أتطفل عادة على ما مرّ من قبل.. ولكن أظن من الأفضل أن

www.elromancia.com

تخبريني شيئاً عنه.. يبدو لي أنه أساء إليك كثيراً. الواضح أنه دفعك للاعتقاد بأنه يحبك من أجل ذاتك لا من أجل ثروة والديك، صحيح؟

فغرت كولين فاها ثم لجأت إلى السخرية:

ـ لقد حزرت! أحسنت! كان رجلاً مثالياً، غارقاً في إنجازات رياضية، ولكنه لم يكن قادراً على تأمين احتياجاته الكثيرة.. وكان بهي الطلعة وسيماً له القدرة على إخفاء زيف ما يدعيه.. كانت النساء يلاحقنه و.. كان قلبي يدق بقوة كلما اقترب مني، ولكنه دأب على ذكر مدى تأثيري فيه.. ما كان يجب أن أنخدع ولكنني كنت في غاية السذاجة.

ـ كم كان عمرك؟

ـ تسعة عشر عاماً.

ـ وما الذي فجّر الوضع؟

ـ سمعته يوماً يتحدث إلى صديقه، وكنت صدفة على مرمى السمع. كان.. بل كانا يتناولانني بحديثهما بطريقة حميمة..

ارتعشت ثم أردفت:

ـ فهمت من حديثه أنني لست من مستواه في بعض الأمور ولكنني قد أنحسن مع الخبرة.. وضحك قائلاً إنني أرفض العلاقات الجسدية قبل الزواج وإنني عديمة الخبرة في هذا المضمار، وإنه قد يضطر إلى التفتيش عن هذا النوع من السعادة في مكان آخر بعد.. الزواج. ولكن حتى نتزوج، عليه أن يكون حذراً معي.. وكما قال، إنها مجرد عقبة بسيطة أمام ما سيحصل عليه. ووالداي سيدفعان «دوطة» كبيرة.. الخ.. الخ..

ـ أوه.. عزيزتي..

قالت مكتئبة:

ـ هناك المزيد.. قال أيضاً إنه يشك في أن يكون مخلصاً لأية امرأة، وإن من حسن حظه، أنني أعتقد أن الشمس تشرق من أجله.

ران صمت قصير، ثم قال ناش:

ـ ماذا فعلت؟ هل قطعت علاقتك به فوراً؟

ـ لا.. فقد أصبحت.. عاجزة عن الكلام.. لم أستطع تصديق ما سمعته، ليس هذا فقط بل لم أستطع تصديق البرودة التي يمثلها قوله.. كنت مذهولة. كان ماكراً ووجدت أخيراً أن والدي على حق بشأنه، فمع أنه كان يفتن معظم الناس إلا أنه لم يستطع خداعهما.. هكذا صممت على الذهاب إلى البيت وكتابة رسالة لإنهاء كل ما بيننا لئلا أضطر إلى رؤيته مرة أخرى، لكنه في اليوم التالي قتل في حادثة تزلج على الماء.. بعد سماعي الخبر، تساءلت عما إذا كنت قد تمنيت له هذا المصير. ثم واجهتني مشكلة وهي افتراض الجميع أن قلبي تحطم من أجله، في الوقت الذي كنت فيه مذعورة.. لكن..

ـ أعرف قصدك.

ـ أتعرف حقاً؟

ـ أجل.. فلا جدوى ولا طعم في إساءة الحديث عن الأموات، لذا فالمرء مضطر لتقبل كل الإشفاق، والإحساس بأنه مخادع. ألم تخبري أحداً؟

ـ أهلي فقط في البداية، ثم أفضل صديقة لي، ليتا، وأخيراً لوكاس.. الذي كان يعرف ديك ويكرهه.. كان..

صمتت متنهدة.. فسألها:

ـ تابعي.. أخبريني عن لوكاس. أود أن أزيل أي وصمة تلطخ اسمي بالنسبة للوكاس من ذهنك. أتظنين أنك كنت قادرة على الزواج به؟

تحركت كولين بقلق، وقالت صادقة:

ـ لا أدري.. لقد كان من القلة الذين لم يفتنهم ديك.. وقد حاول تحذيري ولكنني لم أهتم له.. لأنه كان يفهمه وأعتقد أنني انجذبت إليه لهذا السبب.. ثم كان في غاية اللطف معي وكان يحبني..

ـ إنه نقيض ديك.

ـ أعتقد هذا.

ـ لكن، عوضاً عن الاعتراف بهذا لنفسك رحت تؤخرين أمر الزواج. عندما التقيتك للمرة الأولى كنت تحملين موضوع الزفاف على محمل الجد؟

ـ أوه.. أجل! كنت أتساءل عما إذا كان عليّ أن أفرض نفسي عليه.. ألا يمكنك فهم سبب شعوري بالتشوش؟

جلس عابساً:

ـ أعتقد أننا جميعاً نمر بصدمة أو صدمتين، مع الجنس الآخر. لكنك الآن في الثانية والعشرين، فتاة ناضجة كولين.. وبإمكانك النظر إلى الهفوات الأخرى التي ارتكبتها في أواخر مراهقتك بطريقة موضوعية فتضحكين من نفسك. فلماذا تضعين هذا العبء على كتفيك؟

نظرت إليه بفم مشدود، ثم تمتمت:

ـ أنت آخر من عليّ مناقشة هذا الموضوع معه.

ـ بل على العكس أنا أفضل من تناقشينه..

أرادت أن تغير الموضوع فقالت:

ـ أخبرني عن فيفي.

لوت ابتسامة شفتيه.

ـ عرفتها منذ.. منذ ستة عشر أو سبعة عشر عاماً.

ـ صديقة قديمة؟

ـ كانت أكثر من هذا.. في وقت ما.

فغرت كولين فاها.

ـ أنت.. أتعني؟

هز رأسه:

ـ كان ذلك منذ زمن بعيد.. وحين انتهى ما بيننا تمكنا من البقاء صديقين.

همست بعينين مصدومتين: «لماذا تخبرني بهذا».

ـ لقد سألتني.. ثم هذا ما أرتبت به. أليس كذلك؟

ـ مع ذلك..

ضحك منها: «لقد أخبرتني لتوك كل أسرارك، وبما أنك قابلتها الآن، فمن الأفضل أن تعرفي بالأمر لئلا يكون هناك سوء تفاهم في المستقبل. أنا واثق أنك ستعجبين بها. إنها لطيفة، وعاقلة».

قاطعته بمرارة: «لماذا لم تتزوجها؟.. أنا لا أكرهك فقط.. بل أحتقرك أحياناً!»

ارتعش صوتها وهبت واقفة لتعدو إلى النهر، لكنه لحق بها وشدها إلى ذراعيه وهي عند حافة الماء.

قال برقة، وعيناه تطوفان بها:

ـ أما زلت تقاومين؟

قالت: «لو تجرأت على معانقتي بعد الآن بالطريقة التي تستعرض فيها حياتك الغرامية السابقة أمامي فـ.. فـ..»

قاطعها وعيناه تبرقان بخبث:

ـ تغارين؟ لا حاجة للغيرة.. لقد فات هذا وانقضى منذ زمن بعيد.

ـ لا..! هل تتوقع أن أصدق أنك تغار من لوكاس؟

ـ أوه.. لو تزوجته لشعرت بالغيرة.

اتسعت عيناها بعدم تصديق، فقال وكأنه يخاطب طفلاً متمرداً:

ـ كولين.. حتى أغار عليّ أن أتأثر بك.. وهذا غير صحيح. لا جدوى من الزواج بك لو كنت أغار.

تمتمت ساخرة: «لا أؤثر فيك. يا لي من محظوظة!»

ضحك: ربما كان عليّ أن أشرح هذا بطريقة أخرى.. هكذا، مثلاً.

حاولت المقاومة للخلاص من بين ذراعيه، فوقعا معاً في الماء، حيث أرسلا رذاذاً مرتفعاً فوقهما، وكان كل ما حققته البقاء مستمرة بين

www.elromancia.com

ذراعيه نصف غائصة في ماء النهر، بشرتها منتعشة نظيفة وشعرها قاتم يتموج.

حين انتهى من معانقتها التقطها لتقف، وحملها إلى خارج الماء.. كان يتنفس بصعوبة وهو يضعها على قدميها، وبلف يده حول خصرها.. وسأل:

ـ أما زلت تكرهينني؟

ـ أنا...

ملس شعرها المبلل بعيداً عن وجهها:

ـ هل نعود إلى الجياد.. ماريون قلقة.

ركبا جواديهما ومرا بحدود الأملاك، ثم غسلا الجوادين معاً حين عادا ووضعاهما في الاسطبل مع طعامهما. لم يكن هناك أثر لفيفي، لكن كولين شاهدت اللاندروفر العتيق تحت سقيفة.

قال ناش وهو يلاحظ نظرتها إلى السيارة القديمة:

ـ والدك على حق. أحتفظ بها لأن الرولز في بعض الأوقات مصدر إزعاج.

ابتسمت: «يجب أن أكون صادقة. يجب والدي اقتناء الرولز، لكن أمي لا تحسن القيادة مع أنها لا تعترف بذلك. أوه.. لا بأس بها في الازدحام لكن الأشياء الثابتة تتعبها.. كالجدران، السياج، والأشجار».

ضحك ناش: «تعجبني أمك».

قالت بهدوء وهي تنظر مجدداً إلى اللاندروفر:

ـ وهي بالتأكيد معجبة بك.

ثم ارتدّت إليه:

ـ هلا أخبرتني شيئاً؟ ماذا كنت تفعل في «يامبا»؟ هل تفعل أشياء كهذه دائماً؟

ـ أنا... أيمكن أن نستحم ونغير ملابسنا أولاً؟ ثم أشعل النار

للشواء.

قاطعته: «ألن تجيبني؟»

ـ ليس ذلك بالسر العميق القاتم.. ثم نعم، سأحاول أن أشرح لك نزواتي الطارئة في التجوال كولين.. إنما خلال العشاء.. هل تأتين؟.

ـ أنا... أجل.

***

www.elromancia.com

٦ ـ هل مرت العاصفة؟

بعد الاستحمام ارتدت كولين فستاناً رمادياً واسعاً عليه زهور ربيعية بيضاء وصفراء، ثم عقصت شعرها إلى الوراء بشريطة رمادية وانتعلت صندلاً.

كانت قد دلّكت جسدها بسائل مرطب ولم تستخدم أي نوع آخر من أدوات التجميل..

سمعت موسيقى تصدح ثم تبين لها أنها لموزارت. بعد انتهاء المعزوفة ساد الصمت، ولم يعد هناك ما يدعوها إلى تأخير خروجها من غرفة النوم التي في الطابق السفلي.

مع ذلك ظلت بضع دقائق أخرى غارقة في التفكير، فبعض الأمور تتعقد ويصبح التفسير معها صعباً بشكل غير معقول... مثلاً كيف لها الاستمتاع بعناق رجل معجب بجسدها فقط.. وإلا لما تفاوض معها وكأنها قطعة أثاث مرغوبة.

والأنكى أنه حشرني في أصعب زاوية بحيث بتُّ لا أستطيع التفكير في طريقة للخلاص.. إلا حبس نفسي هنا حتى يعدني بإعادتي إلى منزلي.. أو الإضراب عن الطعام! لماذا لم أفكر في هذا؟ ابتسمت متجهمة: لماذا أشعر بأنه سيزيل هاتين العقبتين من طريقه أيضاً؟

قطعت طرقة على الباب عليها أفكارها، فهبت ترد: أدخل.

لكنه لم يدخل، بل فتح الباب، وحاول قول شيء، ولكنه توقف

عابساً.

لم تتمكن كولين من انتزاع عينيها بعيداً عنه.. كان يرتدي سروالاً من الجينز وقميصاً مخططاً بالأبيض والأسود.

قال بلا مقدمات: «ما بك؟»

تورد وجهها ثم صوّبت إليه نظرة غضب.. في الواقع هو غضب القطة التي تلاحق ذنبها.

قالت ساخرة: «لا شيء.. أنا بخير».

دخل إلى الغرفة، وتوقف ينظر إليها متفرساً:

ـ لو استطعت الاسترخاء فقد نتمكن من إحراز تقدم.

ردت بنظرة ساخرة:

ـ نحو ماذا؟ لا تقل لي إنني قادرة على التكهن.

ـ نحو الكمال. وأنا أعني «رفقة».

ـ ناش.. يجب أن أحذرك أنني على عكس ما يوحي به تاريخي.. لست بارعة في لعبة الألغاز.

ـ وهل تلعبين الألغاز؟

ـ أجل.. لعبة القطة والفأر.. وأنا الفأر.

ابتسمت بفظاظة، ثم تمتمت ساخطة:

ـ ليتني أستطيع اتخاذ قرار.

نظر إليها متسائلاً، ولكنها استعادت رباطة جأشها بسرعة.

أردفت: المسألة أنك تجبرني على الزواج بك، ثم تعمد إلى استغلال تجاربك الكثيرة، وخبرتك مع النساء، بدون خجل لتثبت لي قدرتك على دفعي إلى التجاوب معك. وبتقديري أن تصرفك هذا لا يجعلك أفضل من ديك.. مع أنني لن أكون محقة إن نعتك بالانتهازي النذل بل الأنسب أن أنعتك بالمليونير النذل.

قال وعيناه تومضان خبثاً:

- براڤو كولين! هذا.. النذل يتحمل التوبيخ كلياً.. ولكنك مثيرة وأنت غاضبة.. أتعرفين هذا؟

قالت بسخط: «أوه.. لماذا لا أسجن نفسي؟»

- هذا تصرف طفولي منك.. أنا أفضلك حين تطلقين النار بلا رحمة. ستشعرين بأنك أفضل حالاً بعد تناول الطعام.. الطقس جميل في الخارج، والنار متقدة.

شوى لهما شرائح اللحم والنقانق، وتناولاها مع السلطة إضافة إلى طبق معكرونة حضرته فيفي مسبقاً.. وكان هناك أيضاً قالب حلوى مع الآيس كريم.

كان المكان على قمة تلة ناش مورداون الخاصة هادئاً بشكل غير معقول.. ارتشفت كولين عصير الفاكهة الطازجة الباردة، وهي تراقب الدخان يتصاعد من النار. وبدا أن في السماء ملايين النجوم وهلالاً يتوجه نحو المغرب.

أخيراً قالت: «أخبرني عن نزوة التجول التي تسيطر عليك أحياناً».

هز كتفيه قليلاً.

- يعود منشأ هذه العادة إلى طفولتي إذ كنت أقرأ كتب المغامرات وأحلم.. وكان أكبر طموّحاتي أن أصبح صياداً كبيراً، أو مشرفاً على رحلات الصيد.

رفرفت كولين عينيها، وفكرت في أنه لو قال لها إنه حلم أن يكون مهرجاً في سيرك، لما دهشت أكثر من هذا.

قالت: «إنه طموح غريب لفتى أوسترالي».

- كانت أمي من أفريقيا الجنوبية.

نظرت إليه متسعة العينين:

- أخبرني عنها.

- التقت بأبي في «كيالامي» وهو المكان الذي تقام فيه عادة سباقات

السيارات العالمية خارج «جوهانسبورغ».. وكان أن انبهرت به حتى العمى.. مع أنها نجحت في الزواج به.. ربما لأن لها أقارب أقوياء محافظين على الأخلاق.. كانت ابنة مزارع وظلت هكذا دائماً في قرارة نفسها.. أنا لا أعني أنها لم تكن مثقفة، بل كانت قادرة، مخلصة، عنيدة، عائلية الطراز، وكانت ذات صلة مع الأرض وزراعة الأشياء.. لقد دفعت غالياً بسبب غلطة حياتها الوحيدة.

- وهل اشتاقت إلى أفريقيا الجنوبية؟

- أجل.. إنما الأمر لم يكن هكذا فقط.. فقد كانا غير منسجمين. كانت مزاياها جميعاً تمثل شيئاً واحداً لأبي هو أنه مربوط بها.. أظن أن هذا ما جعل الحياة محمولة قليلاً بالنسبة لها، كانت تشبه كثيراً عائلة مورداون.. ولقد أحبتها العائلة وأعجبت بها..

- هل أعادتك إلى أفريقيا؟

- كانت تصطحبني كل بضع سنوات. كان خالي وهو أحد أشقائها، مسؤول رحلات صيد.

- لماذا لم تطلب أمك الطلاق؟

- كانت متكبرة.. ربما أكثر تكبراً من أن تعترف بفشل زواجها.. على أي حال، كان قد أقسم على عدم الافتراق عني.. ولم أستطع فهم السبب في صغري.. ولكنني فهمت الأمر أخيراً.. كنا أنا وهي صلته الوحيدة بعائلته.. أو ما تبقى من العائلة. ولولانا لغسلوا أيديهم منه منذ زمن بعيد.

ارتجفت كولين: «لا عجب إذن أن تكون ساخراً هكذا».

نظر إليها ثم ضحك: «في الواقع أن سخريتي بالنسبة للأمر خفَّت الآن منذ استعدت ثروة العائلة.. أو على الأقل، فرعنا منها. و.. والدي، وحب حياتي السابق المفترض، ما زالا معاً سعيدين ويا للغرابة».

- لا بد أنها.. قلت إنها كانت أكبر منك سناً، ولكنها بلا ريب أصغر

منه بكثير.

ـ أصغر منه بعشرين سنة.. يبدو أنها جددت له شبابه.. غريب كيف يؤثر الحب بالنسبة لبعض الأشخاص.

ـ وأنت.. أتتجول من وقت إلى آخر لتذكر والدتك؟

ـ شيء من هذا.. أجل.

راقبته كولين بصمت فترة. كان ينظر بعيداً، يحدق إلى الظلام، وضوء النار يتراقص على وجهه.. ازدادت الخطوط على جانبي فمه عمقاً.. فكرت في صخرة العشاق، وتذكرت كيف أسرت ابتسامته قلبها، ابتسامة لم تشاهد مثلها منذ ذلك الوقت.

قالت: «لا أعرف الكثير عن أفريقيا الجنوبية.. لكن بعد رؤيتي لفيلم «الخروج من أفريقيا» قرأت الكتاب، ووجدته مذهلاً ساحراً. ليس فقط بسبب أفريقيا لكن بسبب طريقة عرض الكتاب.

نظر إليها: بما أنك أحببتها، فلا شك أنك كنت ستحبين أمي.

ـ أيمكن أن... لا.

ـ تابعي.

قالت ببطء: «خطر ببالي أن فيك وفي والدك شيئاً من حب المغامرة».

قال: «ربما.. كنت أتساءل أحياناً عما إذا كانت المراوغة الغامضة التي تحيط بأبي هي التي كانت تربط أمي به رغماً عنها. أعني.. كانت قادرة على تركه.. قد يبدو هذا جنوناً.. لكن...»

ـ أعرف ما تعني.. وأنا واثقة أن شيئاً كهذا يحدث أحياناً.

أحست بالبرود من الفكرة.. لكن في الواقع، كان الهواء يشتد، والنار تخبو.. فتنهدت وقالت:

ـ سأنظف المكان.

ـ سأساعدك.

أنهيا تنظيف المكان في وقت قصير، وفيما كان يشغل آلة غسل الصحون وقفت كولين وبسط المطبخ تتساءل عما قد تفعله بعد هذا.

استقام ناش ينظر إليها، ثم قال فجأة:

ـ أظنك تريدين الإيواء إلى فراشك.

ـ شكراً لك.. استمتعت بالشواء.

ـ تصبحين على خير.. هل ستتمكنين من النوم؟

ـ أجل.

وقف على مقربة منها بحيث رأت النار الخضراء في عينيه.. فكرت بعذاب أنه سيضمها وستشعر بأنها حالمة بلهاء.

ولكنه لم يفعل. بل مد يده يلامس شعرها، وقال: هيا.. اذهبي.

مر وقت طويل قبل أن يطرق النوم جفنيها.. لم يكن هذا بسبب الفراش الغريب عنها أو بسبب أصوات الليل الصادحة.. بل بسبب الأفكار الغريبة التي ما انفكت تخطر ببالها. مثل، لماذا، بدل الإحساس بأنها أفلتت من الصنارة، تحس بشيء مختلف؟

كان صباح الأحد، أزرق وذهبياً، خرجا في نزهة على الخيول بعد الفطور متجهين إلى الأعلى نحو الجبل حيث الهواء نقي وصافٍ.

لم يعلق بكلمة على الدوائر الزرقاء الخفيفة حول عينيها، وتجنبت بدورها ذكر ما هو غير عادي.

ثم وجدا بحيرة صغيرة في تجويف تحيط به الأشجار. ترجلا عن جواديهما ليريحانهما ويسقيانهما.. أسندت ظهرها إلى شجرة مطاط وراحت تصغي إلى همهمة الحشرات الطائرة، ثم قالت عن غير تفكير:

ـ المكان جميل جداً هنا.. لو كنت أعيش فيه لما تركته أبداً.

ـ ولن تتركيه إن كان هذا ما تشعرين به.

تنهدت باضطراب وفكرت: لقد دخلت إلى هذا الفخ بقدميّ.. فلماذا لا أتقدم خطوة أخرى؟

ـ لن نتمكن من قضاء وقت طويل هنا.

كان يربط الجوادين إلى شجرة.. تقدم ليتمدد على العشب قرب قدميها، ومرر يداً على شعره، ثم نظر إليها متسائلاً:

ـ إنها مشكلتنا في أي مكان عشنا فيه.. لكن من الطبيعي بسبب وجود زوجة وأولاد أن أحاول في النهاية اختصار مدة أي سفر، أو قد ترغبين في مرافقتي.. ثمة ميزات خاصة في عودة المرء إلى بيته.

ـ أجل.

ـ وبإمكاننا توسيع البيت من أجل الأولاد.

لاذت بالصمت.. فسأل:

ـ هل لديك شيء ضد الأولاد كولين؟

ـ لا.. لكن لم يكن لي صلة بالأولاد من قبل.

وأشاحت بوجهها عنه.. هل يتوقع حقاً أن...

ـ لن أتوقع منك الاندفاع لإنجاب فريق منهم كولين.

ـ أتعرف بماذا تذكرني؟ بذلك القول القديم بأن المياه تفتت الصخر.

ابتسم ابتسامة خفيفة ثم قال:

ـ انزلي إلى مستواي فترة.

ومد يده إليها فأخذتها بعد لحظة تردد، وانزلقت مستندة إلى جذع الشجرة..

قال لها برقة: لم تنامي جيداً؟

ـ لا..

ـ أتعرفين بماذا أفكر؟ ثمة طريقة واحدة نفهم فيها بعضنا بعضاً كولين.. ومن الغباء مقاومتها.

توقفت أنفاسها في حلقها.. وارتجفت تحت وطأة هجوم التجاذب القائم بينهما. فكرت ما أسهل أن تذوب بين ذراعيه إلى الأبد.

همست: «إذا كان لي الخيار فسأقاوم».

ـ حتى بعد زواجنا؟

أغمضت عينيها: «لا أعرف. لا أستطيع تصور هذا، لكنني لن أنكث بوعدي.. وحتى ذلك الوقت، أكان غباء أم لا، أفضل أن أقاوم».

ـ أتظنين أنك قادرة؟

فتحت عينيها تنظر إلى يديها.. ثم رفعت رموشها غير متأكدة مما سترى.. ليلة أمس كانت تفكر إن كانت تقاوم نفسها أكثر مما تقاومه، ثم فكرت في أمه المعلقة بأوهام الكرامة والحب والألم.. في عمق الليل استنتجت أنها لن تستطيع بعد الآن أن تتحمل عدم التصديق والذهول. ولا يمكنها كذلك أن تسمح لنفسها بالخضوع للقبضة التي يفرضها عليها دون أن تتنازل عن شيء من كرامتها.. إن كان عليها أن تدفع بسبب والديها وراحة بالهما يجب أن تقاوم من أجل الحصول على حق التعبير عن عدم ثقتها بدوافعه.

قالت: «أظن.. أنني مضطرة إلى هذا».

ومضت عيناه بسخرية باتت معتادة عليها:

ـ فليربح الأقوى؟ لن أوفر لك فرصة رمي خبرتي وتجربتي مع النساء في وجهي.

غضت طرفها مجدداً ثم رفعته، وكانت نظرتها الزرقاء الرمادية ثابتة، لكن مع شيء من الازدراء.. وهذا ما دعاه إلى التوقف عن الكلام ثم قال بعد تفكير:

ـ لماذا أحس أن بيننا لعبة كرة قدم جديدة؟

ـ سبق أن قلت لك إنني غير بارعة في أية لعبة.. صدق أو لا تصدق ولكنها الحقيقة.

سألها مبتسماً ابتسامة جافة:

ـ أيهمك أن تخبريني عن هذا القرار الجديد؟

ـ لا.

www.elromancia.com

ـ لكن.. يبدو أنك خرجت بسلاح جديد عزيزتي كولين.

تمتمت: «ربما».

وتساءلت عما إذا كان عليها أن تقول له إنها تحس بانجذاب غريب إلى شخص لم تعرفه. وهذا الشخص هو والدته، وأن هذا ما أعطاها هذا القرار.

قالت تهز كتفيها: ربما أعرف عنك المزيد الآن.

حذرها بهدوء: «لا تسيئي تقديري كولين.. أو التأثير الذي يتركه كل واحد منا في الآخر».

ـ ليس الأمر هكذا، بل على العكس.. وهذا لا يعني أن عليّ التوسل إليك لإرضاء رغباتي.

نظر إليها بدهشة لأنها انتقت هذه الكلمات الصريحة.. ثم قال أخيراً:

ـ فليكن ما تريدين.

وقف يمد يده ليساعدها على الوقوف.. لم تراجعه في ما قاله، ولم يحاول التعبير عن أي اهتمام بها بعد ذلك. انتزع منديلاً عن عنقه وبلله في ماء البحيرة، وقدمه إليها. مسحت وجهها ومعصميها وأعادته إليه. فحذا حذوها ثم ركبا مطيتيهما وعادا إلى المنزل صامتين، لكنها وجدت أنها تتساءل عما إذا كان كل ما حققته سيضيف الزيت إلى نار التحدي.

كانت فيفي هناك، خرجت لتحييهما ملوحة ضاحكة:

ـ أرجو أن تكونا جائعين.. لقد طهوت غداء يوم أحد تقليدي.

أغتسلت كولين بسرعة وسرحت شعرها ثم جلس الجميع لتناول لحم الخروف المقلي مع السلطة بالنعناع، والبطاطا المشوية، واللوبياء الطازجة والجزر وفطيرة جبن. كانت فيفي في مزاج رائق فراحت تتحدث بحماس عن تغلبها على قطعة خشب صعبة المراس، وتحويلها إلى الشكل الذي خططته لها.. فكان أن مرّ عدم التواصل بين ناش وكولين بدون أن

تلحظه.

وجدت أنها امرأة لطيفة وتساءلت عما إذا كانت تعرف الحالة الحقيقية لمستوى العلاقة بينها وبين ناش؟ وتساءلت أيضاً عما إذا أخبرها أنه بوشك أن يتزوجها؟ لا بد أنها.. تشعر بالفضول على الأقل. أو ربما اعتادت على اصطحابه النساء إلى هنا..

بعد الغداء أظهرت فيفي فضولها.. كان ناش قد اختفى نحو الاسطبلات، وكانت كولين تساعدها بالتنظيف حين قالت لها:

ـ أنتما.. لم تتعارفا منذ وقت طويل.. أليس كذلك؟ آه! لا تظني أنني أتطفل!

رفعت عينيها إلى السماء ثم عبست وقالت بصدق:

ـ ربما أنا متطفلة.. فأنا.. أعرف ناش منذ زمن طويل.

ترددت كولين: «لقد أخبرني كل شيء عنك».

تجمدت يدا فيفي عن العمل في المغسلة قليلاً، ثم بدأت تمسحهما لتقول بهدوء:

ـ أنا مسرورة لهذا. الأفضل أن تعرفي الآن بدل أن تكتشفيه فيما بعد.. إذا كنت تتساءلين عما يعنيه لي الآن، أؤكد لك أنني سأحب ناش دائماً بطريقة ما.. إنما ليس بتلك الطريقة.

ظهر على وجهها الألم فجأة وأردفت:

ـ فتلك الطريقة محفوظة لرجل لن أستطيع الحصول عليه.. ولهذا أنا.. أحاول جمع شتات نفسي.. يتصور ناش أنني أديت له خدمة مرة، وهذه طريقته في رد الجميل.. ربما تجدين الموقف شاذاً.. وقد حاولت شرح هذا له حين اتصل ليخبرني بأنه آت بصحبة امرأة.

صمتت بعجز، ثم أردفت بهدوء شديد:

ـ أنت الفتاة الأولى التي يصطحبها إلى هنا، لذا فكرت أن الأمر جاد حقاً. وآخر ما أردت أن أفعله هو التدخل.

ـ لا أنت لا تتدخلين أبداً. هذا الرجل.. هل هو متزوج؟

قالت فيفي بحذر: «سيتزوج قريباً.. لكنه من فترة غير بعيدة.. كان زوجي».

حبست كولين أنفاسها.. وتوقفت فيفي عن مسح يديها أخيراً.. تبادلتا النظرات بتواصل فجائي لامرأتين في عذاب.

قالت فيفي مترددة: «كولين».

تمكنت كولين من الابتسام مرتجفة:

ـ أنا.. لست واثقة من نفسي أحياناً فيفي.. هذا كل شيء.

ـ أنا واثقة أن ناش.. سيساعدك على التغلب على هذا. من الواضح أنني معجبة به.. ولكن، على أي حال.. أنا واثقة أنه لا يحتاجني للكلام عنه! أترغبين في رؤية عملي؟

ـ بل أحب أن أراه. قد أتمكن من التعليق عليه، أو قد أجد لك مشترياً إذا كان لديك شيء للبيع.

وطفقت تشرح لها طبيعة عملها، فرمت فيفي قماشة المغسلة وقالت بطريقة مرحة:

ـ سيدتي! قد تكونين الرد على دعواتي! تعالي قبل أن تغيري رأيك.

اشترت كولين ثلاثة من أعمال فيفي فوراً. تمثالين وزوج من مساند الكتب المحفورة.. ناقشتها في طبيعة العمل الذي ستهتم فيفي بإعداده فيما لو استطاعت كولين بيعه لها..

قالت كولين:

ـ مثلاً، قد يبدو لك هذا تجارياً كثيراً، لكننا نقوم بديكور منزل جديد، والمالك يريد ألواح خشب محفورة عليها دلافين تسبح حول... الجاكوزي.. أكان عليّ أن أذكر لك هذا؟

قاطعتها ضاحكة وقالت أخيراً:

ـ عزيزتي كولين.. يفهم معظم الفنانين حقائق الحياة.. إن استطعت

إرسال بعض القياسات أكن مسرورة بالبدء بحفرها!

غادرت كولين المشغل بعدما وضبتا بحذر المشتريات، وتركت فيفي تبحث في كتبها عن صور للدلافين.. لم يكن هناك أثر لناش. واستحمت كولين، ثم غيرت ملابسها وارتدت تي شيرت أحمر وجينز نظيفاً.. ثم وضبت حقيبتها.

عندما لم يظهر ناش تجولت في الطابق السفلي فترة ثم ارتقت باندفاع متهور الدرج متوجهة إلى غرفته.

ترددت في أعلى الدرج تنظر حولها. كان السرير الكبير مرتباً والغطاء الأرجواني ناعماً.. بدا سطح طاولة المكتبة منظماً، وحقيبته مفتوحة على كرسي في انتظار التوضيب.. وفي الغرفة مدفأة حجرية يحيط بها رفوف كتب، فتقدمت نحوها تتفحص ذوقه الأدبي الذي بدا كلاسيكياً وكان هناك رف عليه كتب تعود إلى أيام طفولته.

التقطت كتاباً منها، وتصفحت صفحاته الصفراء، فسمرتها الصور ورسومات الحيوانات.

ثم تقدمت إلى إحدى النوافذ البارزة فجلست على مقعد خشبي ورفعت قدميها إليها لتنعم بالمنظر أمامها.. لم تدرِ كم جلست. راح الجو يظلم وتلبدت الغيوم في السماء ملقية ظلالاً على كل شيء.

ما إن هطلت أولى قطرات المطر على أحجار الشرفة حتى سمعت الباب الخارجي ينفتح ثم ينغلق.

لسبب ما لم تتحرك.. وتساءلت عما إذا كان الذي دفعها إلى هذا هو إحساس بالتحدي.

أشاحت بصرها عن المنظر في الخارج أخيراً فرأت ناش في أعلى الدرج يتوقف إذ أدرك أنها هناك.

ارتفع حاجبيه وقال: «ظننتك مع فيفي».

ـ كنت معها.

حاولت الوقوف ولكنه تقدم إلى النافذة.. كان المطر الآن ينهمر بغزارة وأسواط البرق تشق الفضاء.

سألها وصوت الرعد يرجف المنزل: «ألست خائفة؟»

هزت رأسها: «طالما أحبيت العواصف».

ـ ابقي هنا إذن.. من الأفضل أن أوضب حقيبتي. سنغادر متى خفت العاصفة.

ابتعد عنها ليضيء مصباحاً بدد نوره الظلال من الغرفة.

راقبت كولين العاصفة فترة. ثم ردت رأسها إلى الخلف تراقبه، كان يرتب ملابسه بدقة، ثم أقفل الحقيبة ورفع رأسه، فتلاقت نظراتهما. سألها:

ـ هل صعدت إلى هنا لسبب محدد كولين؟

هزت رأسها: «ليس في الواقع.. بل كنت أحاول فهم دوافعي للدخول إلى هنا».

ـ ربما مجرد فضول؟

ـ ربما.

ـ تنظرين إليّ أحياناً بطريقة غريبة.

ـ صحيح؟

جلس في مقعد ثم مد ساقيه الطويلتين:

ـ هل لي أن أقترح شيئاً؟

ـ إن كان اقتراح حب بدل حرب.. لا.

ضحك ونظر إلى الفراش الناعم.

ـ هناك ميزة محددة للحب وسط عاصفة رعدية داوية.. هل جربته يوماً؟

أشاحت بصرها عنه وقد اجتاحتها موجات من الحر. ساد صمت.. حتى قالت:

ـ أظن أن الأسوأ انتهى الآن.

ـ أسوأ ماذا؟

وعرفت أن عينيه لم تفارقها لحظة، وهذا يعني أنه رأى خجلها الذي ظهر عليها.

قالت بهدوء:

ـ لقد مرت العاصفة.

لكنها كانت تفكر: سأكون ملعونة لو اعترفت.. بشيء..!

ـ فلنذهب إذن.

نظرت إليه: «إن أردت».

لكنها لم تستطع إخفاء نظرة التحدي من عينيها.

* * *

قطعت كولين الصمت المتوتر الذي ساد رحلة العودة، بقولها فجأة: اللعنة!

بدا ناش مشغول البال، لكنه التفت ورفع حاجبه:

ـ أنسيت شيئاً؟

نظرت إلى ساعتها: «لا.. أعني أن اليوم هو الأحد.. فلا تقلق».

ـ صحيح.. إنه الأحد والساعة الخامسة والنصف.. فهل لديك موعد؟

ـ إن دايف والسيد فوليك آتيان في السادسة لـ..

ـ دايف؟ السيد فوليك؟ هل لي أن أعرف عنهما شيئاً؟

نظر إليها نظرة ضاحكة، فقالت:

ـ دايف في العاشرة وهو يعيش في الشقة المجاورة لشقتي مع والديه وكلبه السيد فوليك. لدينا موعد للعب الورق الليلة. فهل من اعتراض؟

ـ أبداً.. سنصل إلى هناك قبل الوقت.. أما قلت إنك لا تتعاملين مع الأولاد؟

www.elromancia.com

ـ قلت إنني لم أتعامل معهم كثيراً . . إن مجالسة طفل في غياب والديه أحياناً ولعب ورق مع ولد لا يعني أنني ذات خبرة بالأولاد . .

رد برزانة: «فهمت».

ـ جيد .

ـ لماذا؟

ـ أنا سعيدة لأنك قادر على التفهم . هذا كل شيء .

ـ لا بد أنك أفضل حالاً الآن . . إما هذا، وإما أن في سيارتي ما يدفع روح القتال عندك للوثوب .

عضت شفتها محاولة إجبار نفسها على الاسترخاء، لكنها أدركت وهي تدير وجهها إلى النافذة، أن هذه العطلة الأسبوعية أثرت فيها كثيراً، علماً أنها قررت عدم الغرق في المزيد من التكلف أو المناورات المذعورة . في الواقع أحست وكأن أعصابها على شفير هاوية .

قالت بجفاء حين أوقف السيارة خارج المبنى:

ـ لست مضطراً للصعود معي .

رد والضحكة تكاد تثب من عينيه:

ـ لا أنوي فرض نفسي عليك وأنت في هذا المزاج . . لكن لديك أغراضاً كثيرة فكيف تحملينها؟

لقد نسيت منحوتات فيفي، فسارعت تقول: أوه . . شكراً .

وهما يخرجان من المصعد . . ارتد طيفان غير واضحين في نهاية الممر بلهفة، وبدأ ذنب بالتحرك بجنون، ثم حوصرت كولين . .

صاح دايف بحماس: «لم تنسي» .

ـ بل لقد نسيت دايف . . أرقد سيد فوليك!

تجهم وجه دايف: «إذن، ألغي الموعد» .

سرعان ما أضاء الأمل في عينيه:

ـ بإمكان صديقك اللعب معنا . . دورة واحدة . . واحدة فقط!

نبح السيد فوليك، الصغير الحجم، الأسود اللون، بإثارة فقال ناش:

ـ أنا لاعب ورق ماهر .

نظرت إليه كولين وقالت باستسلام:

ـ حسناً! أدخلوا جميعاً!

* * *

قال دايف لناش بعد بعض الوقت:

ـ أعرف من أنت .

ـ أوه؟

ـ أنت صاحب الرولز المذهلة . . رأيتك برفقة كولين بالأمس . . فهل أنت . . أوه . . يا إلهي! لم تتح لي فرصة استخدام «الجوكر» معي!

وكانت كولين قد كسبت الجولة، فقالت له مواسية:

ـ ستستخدمه في المرة التالية . . اليوم دوري في الربح .

قال دايف، وكأنه يقول سراً لناش:

ـ إنها بارعة في هذه اللعبة . . هل ستتزوجك بدل لوكاس؟

تورد وجه كولين وتجنبت نظرة ناش . قالت: «دايف . .»

لكن ناش قاطعها مجيباً: ربما .

كشر دايف:

ـ أملت ألا يتزوجها أحد حتى أكبر وأتزوجها أنا . . لكن لا يبدو أنني قادر على منافسة من يملك رولز رويس . . هل أقدر؟

صمتت كولين مجدداً وامتقع وجهها مرة أخرى . . ولكن دايف أصبح قرمزي اللون فجأة وبدا وكأنه يتمنى من كل قلبه لو تنشق الأرض وتبتلعه .

هكذا استغنت عن كل تعليق لتقول بوقار وهي تعبث بشعره:

ـ أشكرك على هذا دايف .

ـ أنت لا . .

وصمت: «أظنني في الواقع أعرف . . كل الفتيات يسعدن بالثناء،

www.elromancia.com

حتى حين يكون الأمر مستحيلاً.. حقاً».

بدا على دايف الراحة، ثم رن جرس الهاتف مرة واحدة، وهذه إشارة متفق عليها من والديه بأن وقت العودة إلى المنزل حان.. فكان أن غادر هو والسيد فوليك.

أغلقت كولين الباب خلفهما وأسندت نفسها إليه وهي تحس بالإرهاق.. ما زال هناك ناش لتتعامل معه، فقد أرسل لها أخبث النظرات من خلال ما كشف دايف عنه، ولم تجرؤ على النظر إليه منذ ذلك الوقت.

كان واقفاً وظهره إليها ينظر إلى الخارج، فالتقطت صينية المرطبات، وحملتها إلى المطبخ. ثم ارتدّت على عقبيها عائدة إلى غرفة الاستقبال، حيث اصطدمت بمسبب توترها الذي كان واقفاً عند الباب.

ـ رويدك.

ولف يده على خصرها.

قالت وفي عينيها عاصفة: «دعني».

ـ بعد لحظة.. إذن لديك معجب آخر؟

ـ وربما معجب حقيقي!

شدها قليلاً إليه: «سنعرف مع الوقت».

ـ واثقة أنك على حق. هل لي أن أطلب شيئاً؟

فكر لحظات ثم قال: «بالتأكيد.. لديّ عقل منفتح لأي طلب».

حاولت الخلاص منه ولكنه شدها أكثر، واستند إلى الباب ونظر إلى وجهها المتمرد:

ـ هيا.. قولي ما تشائين.

ـ أرجو.. أرجو أن تبتعد عني وتدعني وشأني فترة ما.

ـ وهل وصل التأثر إلى أعصابك كولين؟

ـ أنا...

ـ أم لعلك بحاجة إلى بعض الوقت.. للتفكير؟

فقالت قبل أن تستطع منع نفسها: «أجل».

ارتفع جفناه بكسل، وبدأ قلبها بالخفقان سريعاً ولكنه ابتسم وقال:

ـ سأكون شديد الاهتمام بما ستتوصلين إليه حتى يوم الجمعة.. سأكون في «ملبورن» حتى يوم الخميس، ولكنني فكرت في الخروج ليلة الجمعة.

رفع حاجبه لها.. فقالت بعجز: «إن.. أردت هذا».

ـ أوه.. أريد. أي نوع من الخواتم تريدين لخطبتك.. الثالثة؟ هل تحبين «الزفير»؟

ـ بل أكرهه.. كان أول خاتم خطوبة تلقيته من الزفير.

ـ أوه.. عزيزتي.. لم يخطر هذا ببالي. ولكن واضح أن هذا مشكلة لسيدة خطبت مدة.. فلأرَ إن أبعدنا الألماس والزفير، فماذا يبقى؟ الياقوت؟ أو الزمرد؟

ـ لدي فكرة أفضل بكثير، لماذا لا توصي لي بصنع خاتم يمثل سلسلة وكرة حديدية؟

ضحك برقة، ثم أحنى رأسه يلثم وجهها:

ـ هدف لك! أراك يوم الجمعة.

تركها وذهب بدون أن يضيف كلمة أخرى.

* * *

قالت لأمها عبر الهاتف مساء الأربعاء:

ـ حبيبتي.. سأكون على ما يرام.. أظنها فكرة رائعة. أرى أن تأخذا إجازة للراحة، فإن كان موافقاً فعليك ضرب الحديد وهو حامٍ فقد يغير رأيه.

ـ حسناً. لقد خطرت ببالي هذه الفكرة، فأنا أظنه بحاجة للسفر.. لهذا فكرنا في ركوب السيارة صباح الغد لتقلنا إلى حيث يقودنا مزاجنا.

قالت كولين بحرارة: «يبدو هذا رائعاً.. إنما لا تفسدي الأمر بالقلق

www.elromancia.com

عليّ أو على أي شيء.. فلا سبب للقلق بعد الآن».

ردت تيسا: «صحيح.. ولكنني أشعر أن من الصعب أن أفهم.. إذا كنت تفهمين ما أعني».

- أمي.. بالتأكيد. لم يتم حتى الآن ترتيب الأمور المالية.. أعني.. ثمة وقت لكتابة العقود وما شابه.

كتمت أنفاسها وهي تنتظر، فضحكت تيسا:

- في الواقع، كل شيء موقع ومختوم حبيبتي، والأكثر من هذا أن ناش وضع فعلاً مبلغاً ضخماً في رأسمال الشركة.. معروف في عالم الأعمال أنه متى قرر شيئاً سارع بتنفيذه.. لكن يجب أن أقول إن والدك أصيب بالدهشة بسبب السرعة التي تمت فيها الصفقة.. لكن على أي حال...

نظرت كولين إلى نفسها في المرآة فرأت أنها شاحبة بيضاء، فقاطعتها:

- أمي.. متى.. أنت لم تذكري لي هذا..

- عن العقود؟ ألم نذكر لك؟ لكنك لم تكوني قلقة على أي حال كلودالين؟ إنه.. رجل من ذلك النوع عزيزتي.. و.. حسناً.. أعتقد أننا عرفنا أنك لن تكوني خائفة..

لم تسمع كولين ما تبقى من كلام أمها، وما تذكرت وهي تضع السماعة من يدها ماذا قالت رداً عليها. لكن ما قالته طمأن أمها على ما يبدو، لأن كلمات وداعها كانت مرحة، وهذا كل ما تعرفه.

فيما كانت تنظر إلى وجهها الشاحب المصدوم في المرآة.. تسللت موجة فهم إليها رافقتها موجة غضب..

***

٧ - إلى أين تهرب؟

ابتعدت أخيراً عن الهاتف وهي تتنفس بصعوبة ثم اكتشفت أن يديها ترتعشان وأفكارها تتطاير في مختلف الاتجاهات.

إنها لعبة.. لعبة انتقام بارد مدروسة بكل قسوة.. لكن لا بد أنه كان يعرف أنني سأكتشف الأمر في النهاية.. وما كان ليهتم! ربما كان يعد الأيام التي تمر وأنا ماضية في جهلي، وكأنها جائزة له، بعد الرعب الذي سببه لي.. وكان يخفي عني الأمر بضعة أسابيع على أي حال.. آه!.. وكان ذكياً بحيث لم أدرك أن والداي المتزمتين في أفكارهما سيثقان بكلامه أكثر من ثقتهما بالأوراق.. وكان ممكناً أن أمضي في جهلي لأسابيع أخرى! لكن لماذا؟

وقفت في وسط غرفة الاستقبال نمعن النظر في الأفكار التي تراودها.. إنه ساخر كثير الشك و.. ويجب أن يكون هكذا فما قمت به لا يقارن بكل هذا.. لكن، ماذا فعلت له على أي حال؟ تركت نفسي أنجرف في تياره؟ لكن هذا..

بدأت تذرع الغرفة بسخط محاولة أن تنظم أفكارها المشوشة الغاضبة، وأن تضع شيئاً من المنطق لتصرفها.. همست: وأنا من ظننت أنني بدأت أقع في حبه.. آه.. فهمت.. اللعنة عليك جوناش مورداون! هذا ما كنت تخطط لتحقيقه، ليس لتقييدي بالزواج بك.. بل حتى تتمكن من تركي.. ما أخبثك! لكن لا تتصور...

رن جرس الهاتف للحظات، ففكرت أن تتجاهله، ثم تناولت السماعة بنفاد صبر.. كانت مخابرة خارجية. سألت عاملة الهاتف عن الآنسة فوربز، ثم أوصلتها بالشيد مورداون.

احمرت عينا كولين بنار الغضب، ثم ضاقتا. سمعت صوته أخيراً: «كولين؟»

كانت تفكر بقسوة، وارتجفت قائلة: آ.. آلو؟

ـ أكنت نائمة؟

ـ لا..!

ـ تبدين.. مرتبكة.

ـ لم أعرف أنك تعرف رقمي.

ـ لم أكن أعرفه.. ولكن من السهل أن أجده.. فهل تعترضين أن أتصل بك؟

ـ أنا.. أما زلت في ملبورن؟

ـ أجل.. وأفكر فيك.

صمتت كولين مذهولة لأن جسمها رغم كل ما تعرفه يقشعر، ليس بسبب ما قاله لها، بل لأنها شعرت بأنه متعب.

ـ كولين؟

تنحنحت: «أنا هنا.. أكنت منشغلاً؟»

ـ أجل.. وأنت؟

ـ لا.. أوه.. كالعادة فقط.

ـ هل توصلت إلى استنتاجات بشأننا؟

شدت كولين قبضتها، لكنها تمكنت من القول:

ـ وماذا أجني من ذلك غير إزعاج نفسي.

ـ أنا مسرور بما أسمعه.. بعد لقائنا الأخير خلتك ستقررين مغادرة البلاد.

ـ ماذا ستفعل لو غادرت البلاد؟

ـ أظنك تعرفين الرد.

ـ بالتأكيد. وددت التأكد فقط.

ـ لو كنا معاً لكان التأكد..

قاطعته: «لا تقل شيئاً!»

ـ قد يكون مبهجاً جداً وهذا ما يعرفه كلانا. أنا مشتاق إليك.

كادت تقول: كذاب.. لكنها قالت: «ماذا يفترض بهذا أن يعني؟»

تأخر قليلاً في الرد:

ـ يعني أنني أود أن أكون معك، أن أضمك، وأعانقك.. هذا كل شيء.

ـ كل شيء؟

لم يرتعش صوتها بسبب السخرية بل بسبب كلماته التي حركت أعصابها.. اللعنة عليه مجدداً..

سأل: «وهل من مزيد؟ هل من شيء نسيته؟»

سحبت نفساً: «أنت.. لماذا لا تذهب إلى الفراش؟ تبدو متعباً.

ـ وأنت أيضاً تبدين متعبة مشاكسة.. ربما نشتاق إلى بعضنا بعضاً.. أظنني باقياً مستيقظاً لأعمل. إن كانت الساعة السادسة تناسبك أراك في ذاك الوقت.. أحلام حلوة كولين.

وتكتك الهاتف في أذنها.

وضعت السماعة ببطء وحذر ضائعة في أفكارها. ثم نهرت نفسها وتوجهت إلى فراشها ولكنها لم تر في منامها أحلاماً جميلة بل مشاكل ومشاكل.

فكرت أن عليها ألا تتغير كثيراً.. فلو أصبحت فجأة مثيرة مغرية، فسيشك في شيء ما.. لا كولين.. إنه دورك في المكر.

لم يخطر ببالها مدى سخرية الموقف حتى ساعات الفجر الأولى.

www.elromancia.com

وبعدما دار رأسها بسبب التعب، غدت عداونية التصرف يائسة، عازمة على الانتقام.

سألت نفسها وهي تضع خدها على الوسادة: إنما لماذا لا أنتقم؟ لماذا يجب أن أقبل أن أكون غبية ضعيفة، خاضعة.

في تمام السادسة من مساء الجمعة رن جرس الباب. كانت تهمّ بمغادرة الدوش عندما سمعت الرنين. لقد تأخرت ولكنها لم تتوقع أن تنشغل في هذين اليومين إلى هذا الحد فقد تأخرت في العمل وشعرت بالحاجة للبقاء تحت الدوش أطول مدة ممكنة. هرعت إلى الباب لتفتحه وكان شعرها يتقطر ماء.

على الرغم من هذا فاجأها.. فقالت: «مرحباً.. أوه!»

رفرفت عينيها وهي ترى أنه يرتدي بنطلون شورت وحذاء يصلح للرمال، ومحمل بالحقائب. ليس هذا فقط بل كان يبدو عفوياً خالياً من الهموم، أصغر سناً.. ولكنه لم يبدُ إطلاقاً ذلك الوحش الشيطاني الذي صوّره خيالها المفرط في التفكير.

رفع حاجبه متسائلاً:

ـ تبدين دهشة برؤيتي كولين.

ـ لست دهشة.. فأنا.. وصلت لتوي إلى المنزل والطقس حار جداً.. أدخل.

ارتدت عن الباب تاركة له مهمة إغلاق الباب بقدمه.

كان هناك دلائل على تأخرها في الوصول إلى المنزل فهناك حقيبتها المفتوحة، ومحتوياتها المبعثرة، وهناك النظارة الشمسية الموضوعة بإهمال على الطاولة والبريد المتروك أرضاً حيث تركته في عجلتها.. فانحنت لتجمعه.

حين استقامت، كان قد تخلص من حقائبه ووقف خلفها وهذا ما دعاه للتمتمة بشيء آخر وهي تستدير لتصطدم به.

أمسكها بكتفيها وإلتوت شفتاه، وقال متمتماً:

ـ يوم عمل حافل على ما يبدو.

أمسكت بريدها.. وهزت رأسها:

ـ سأذهب لـ.. أرتدي ملابس لائقة.

ـ لائقة؟

أخذت عيناه اللوزيتان تتأملان قوامها الممشوق.

ابتلعت كولين ريقها بصعوبة، وعرفت أن بإمكانها فعل شيء من اثنين: إما الخلاص وإما التظاهر بالانجذاب وترك المجال له ليعانقها.

رفعت بصرها تتمنى على الله ألا يظهر أي ارتباك في عينيها.. مع ذلك كانت تتساءل عما يتوقع أن يراه.. كيف يمكنها أن تدعي استسلاماً عاجزاً؟

أمسك كتفيها فهبّت أحاسيسها واتسعت عيناها ذهولاً وأوقعت البريد من يدها.

سألها: «أيعجبك هذا؟»

كان يدلك كتفيها برقة.

أغمضت كولين عينيها ثم ألقت لا إرادياً رأسها على ذراعه.

ـ أجل.

ـ وهذا؟

همهمت شيئاً غير مفهوم.. ربما هو همسة يأس.. فقد شعرت أنها تلين أمامه.. لكن عقلها كان يتحرك ببطء شديد وكان من المستحيل تقريباً أن تركز إلا على الأحاسيس التي كانت تتراكض في داخلها..

راحت ترتعش بين ذراعيه.. كان عناقاً تركها متألمة، كأن قوة بدائية تطوف فيما بينهما لا يمكن نكرانها، وما أدهشها بشكل مبهم غامض هو غياب نظرة الانتصار التي كانت تتوقعها.

ـ كولين؟

بالكاد تحركت شفتاه.. فهمست ترد: «ماذا؟»

لكنها كانت تعرف بالضبط طبيعة سؤاله. كانت أنفاسه ثقيلة، رأت هذا، بل أحست به، وكان هناك عرق ينبض على فكه، وكان يتمسك بها قريباً منه وكأن الإحساس بها أمر لا يستطيع مقاومته.

تسللت فكرة إلى رأسها: لقد أمسكت به حيث أريد.. لكن الفكرة تبعتها فكرة صادقة أخرى تقول: نحن في المركب ذاته وما أفعله الآن، هو ما كنت سأفعله قبل أن أعرف، وللسبب ذاته..

أخفضت رأسها لتريح جبينها على كتفه للحظات قصيرة.. ثم استرخى جسدها، وأسبلت يديها إلى جانبيها.. تطلعت إليه بعينين زرقاوين ورماديتين ترد على نظرته باكتئاب.

اشتد فمه الذي أصبح خطاً قاسياً للحظة، ثم تركها فجأة مرتداً عنها ليقول:

- هل هذا هو وقت اللجوء إلى حمام بارد؟

لعقت شفتيها ونظرت إلى الأسفل.

- بإمكاننا السباحة.

ابتسم دونما مرح: «في الظلام؟».

- لن يحل الظلام قبل نصف ساعة.

قال بسخرية: «ليتني كنت بعيد النظر فجلبت معي بعض الثياب».

- ماذا.. ماذا جلبت معك إذن؟

- عشاء.. عشاء إيطالياً جاهزاً يمكننا تسخينه. حسن.. إن لم تمانعي أن أخرج معك في بنطلون شورت مبلل.. فهيا بنا.

- أنا...

- إنها فكرتك كولين.

شاهدت البريق الذي لا رحمة فيه في عينيه اللوزيتين، فارتدت عنه وكأنها تدافع عن نفسها.

كان الطقس جميلاً على الشاطىء.. سارا معاً فترة قبل أن يغطسا. كانت المياه باردة ثم أصبحت ضربات الأمواج منعشة ومريحة.. أخيراً، خرجا، والأفق الغربي كتلة نار ملتهبة برتقالية مخططة بغيوم سوداء. لفت كولين منشفة حولها، ووجدت أنها متوترة مع أنهما لم يتبادلا كلمة حتى الآن.

أخذت تتطلع حولها فيما كان ناش يجفف نفسه، ثم وضع المنشفة حول عنقه.. تساءلت عما إذا حققت السباحة شيئاً بالنسبة له..

فتحت شفتيها بعدما تملكها خوف مفاجىء اعتصر قلبها.. نذير مسبق جعلها تتوسل إلى نفسها.. لا.. أوه.. لا.. ليس هذا.. تذكري كل ما جعلك تمرين به.

- كولين؟

رفرفت عينيها، ورفعت بصرها إليه، فأخذ ذقنها بيده.. عيناه غريبتان تلتهمانها.. الخوف الذي أحست به، من أن يتمكن من رؤية أعماق روحها أو أن يصوغ مخاوفها وترددها في استنتاج تعرف أنها ستندم عليه، أعاد إليها روح التحدي والعداء.

قالت بفظاظة:

- لا أعرف إن كنت جائعاً أما أنا فبلى لأنني لم أتناول الغداء.

ضاقت عيناه، واشتدت أصابعه على ذقنها. ارتجفت قليلاً لكن من الداخل.. فقد عرفت أنه التقط التحدي الذي رمته، كما عرفت أن ما تبقى من الأمسية سيكون معركة شجاعة وإرادة قد تخرج منها مجروحة نفسياً نازفة إن لم تكن باردة حذرة. عرفت وهذا ما أعطاها لحظة تردد أن أحد الأسباب التي تدعوهما للقتال في هذه المعركة، هو تقدمهما في معرفة أهواء الآخر بشكل جيد جداً.

لكنها لم تكن واثقة لماذا يزعجها هذا. على أي حال، الفكرة مراوغة، وعليها أن تتركها تمر. انتظرت بصبر ردة فعله.

www.elromancia.com

ترك ذقنها:

- إذن.. فلنأكل آنسة فوربز.

قالت بعفوية ما إن وصلا إلى المنزل.

- أظنني بحاجة إلى دوش آخر كي أغسل الملح من شعري.. أترغب في دوش؟

- لا.. بل منشفة جافة فقط. شكراً.

نظرت إلى شورته المبلل:

- أوه! إن أعطيتني الشورت وضعته في النشافة الكهربائية.. لن يطول الأمر.

نظر إليها ساخراً:

- شكراً لك.. ولكن ألن تصاب مبادئك الأخلاقية بالتراجع إن بقيت فترة مدثراً بالمنشفة فقط؟

ردت بخفة متعمدة:

- لا.. لن يحصل هذا.. ولكن أتظن أن كرامتك الرجولية المسكينة المجروحة ستستعيد عافيتها؟

لم تستطع غير الابتسام سراً بسبب النظرة اللوزية الحادة التي رمقها بها. ولكن إن ظنت أنها سجلت ضربة موفقة ضده فقد أخطأت لأنه سرعان ما استرد وعيه ثم ابتسم قائلاً:

- أعرف الآن ما يشعر به السيد فوليك.

رفعت حاجبيها، فأردف:

- أجل.. ماذا قلت له يومذاك؟ ارقد أيها الكلب أهذا هو الأسلوب الذي تعاملت به مع لوكاس؟

عضت شفتها وقالت بهدوء: «لوكاس.. أتركه خارج هذا».

هز كتفيه: «حسناً، لا بأس.. لماذا لا تذهبين لتستحمي؟ سأبدأ بتسخين العشاء».

ترددت لكنه تمتم: «أنا معتاد على العمل المنزلي».

فارتدت على عقبيها تاركة إياه.

ارتدت سروالاً أبيض قصيراً وبلوزة بيضاء ثم تركت شعرها مسترسلاً ليجف.. فيما كانت ترتب غرفة النوم، سمعت صوت النشافة الكهربائية فانزعجت لأنه يتصرف وكأنه في بيته مستخدماً غسالتها ومطبخها. ولكنها ألغت كل دليل على غضبها، وأخذت تفكر في كل ما أنجزته الليلة.. وخطر ببالها أن رفض ناش هو كاللعب بالنار.. لكن كيف السبيل للاستمرار؟

ما إن خرجت من غرفة النوم حتى رأت على الطاولة في غرفة الاستقبال أدوات الطعام، ومنديلين، وطبق جبنة وسلطة. رفعت حاجباً ودخلت المطبخ. كان قد اشترى الكانيلوني الذي كان يسكبه من وعاء بلاستيكي. شمّت الرائحة اللذيذة، فسأل: «أرائحة الطعام لذيذة؟»

- نعم.

- هل تمانعين إن تناولنا الطعام في غرفة الاستقبال؟

- أبداً.. بل يمكننا ذلك من مشاهدة الأخبار أو أي برنامج آخر على التلفاز.

جلسا جنباً إلى جنب على الأريكة.. حتى تمكنت كولين من الاسترخاء لمشاهدة برنامج مسلٍ في التلفزيون.

قالت وهي تبعد طبقها لتحمل كوب العصير:

- إنه برنامج قديم، لكنه مسلٍ.

وقف ناش يجمع الأطباق، فقالت:

- سأغسل الصحون فيما بعد.

ولكنه لم يرد.. سمعت الماء يجري في المغسلة وهو ينظف كل شيء. نهضت هي أيضاً بعد دقائق لتغير محطة التلفزيون ولكن لم يرق لها شيء، فأطفأته، وأخذت تصغي إلى الصمت حولها.. لم يكن يكسر هذا

www.elromancia.com

الصمت غير صوت بابَ النشافة الذي انفتح.. فتساءلت عما إن كان يهمّ بالمغادرة الآن.

عاد إليها وهو مرتد السروال القصير.. ولكن ما إن تلاقت نظراتهما وتصادمت حتى شعرت ببشرتها تقشعر، وبالتوتر يتصاعد مجدداً. عرفت أن الجولة الثانية، أم هي الثالثة، على وشك البدء. أحنت رأسها قليلاً، ثم رفعته وقالت: ماذا الآن؟

تقدم نحو الأريكة، وصب لنفسه المزيد من العصير وجلس:

- اختاري أنت.. أنا مستريح هكذا.

حاولت كولين السيطرة على أفكارها، ثم دفعت شعرها إلى الوراء وقالت:

- ما أروع أن نسترخي فقط.

رفع حاجبه: «أتظنين أن هذا ممكن؟»

قالت بشيء من التوتر المباغت، أدهشها:

- أنا.. يجب أن يكون ممكناً.

- أيمكن أن تجلسي لتفكري؟

- إن كنت تنوي أن.. أن..

- أنا لا أنوي أن أفرض نفسي عليك كولين.

عضت شفتها بإحباط، ثم جلست وعرض الأريكة كله بينهما..

- ربما ما أحاول قوله هو هذا..

نظرت إلى كوبها ثم رفعت عينيها إليه:

- إن لم يكن زواجنا من صنف زواج والديك المدمر فعلينا أن نجد أوقاتاً نسترخي فيها معاً بحنان ومحبة، وتسامح ومرح.

- بالتأكيد.. بعد الحب.. إذ بالإمكان وجود مثل هذه الأشياء بين المرأة والرجل، خارج الزواج.

- نحن لا نتكلم عن هذا.

- إذا كنت أتكلم عن هذا فلأجعلك تدركين أنني قادر عليه.

قالت بسخرية:

- لكن، فقط، بعد الحب. أو لأكون أكثر تحديداً.. بعد العلاقة الحميمة.

هز كتفيه: «إنها العادة التي تولد مثل هذه المشاعر».

قالت ببطء: «لو أوينا إلى الفراش الآن مثلاً ثم أن هذا لم يولد لنا شيئاً.. فهل تحلني.. من الاتفاق؟»

- لا.

- مجرد.. لا؟

- هذا ما أخشاه.

- ألا تخاف أن يكون زواجنا زواجاً مدمراً ملؤه الخراب؟

فكر لحظات، ثم قال:

- العوامل التي أدت إلى تدمير زواج والديّ غير موجودة في زواجنا، كولين. لأننا سنلتزم بالزواج.

أرجعت رأسها تسنده إلى ظهر الأريكة:

- ليس من أجلنا بل من أجل المؤسسة. ألن يكون الأمر غريباً إن أغرمنا ببعضنا بعضاً يوماً؟

صمت طويلاً، فالتفتت إليه، ففوجئت بنظرة ضاحكة غريبة في عينيه..

قالت بجفاء: «طبعاً أنت لا تؤمن بهذا.. أليس كذلك؟ إنها مجرد قصة خيالية عاطفية بالنسبة لك.. أما بالنسبة لي.. أتعرف الفرق الرئيسي بيننا؟ أنت لا تثق بالجانب العاطفي من الحب، وأنا لا أثق بالجانب الجسدي.. وإذا قدّر لهذا الثنائي يوماً أن يلتقي.. فمن يعلم ما قد تكون النتيجة..»

قطب حاجبيه قليلاً: «ماذا تحاولين القول كولين؟»

www.elromancia.com

ـ أحاول فقط أن أتأمل ما نحن مقدمان عليه، أن أفكر ملياً في العلاقة الزوجية.. وفي ما إذا كنت قادرة على قلب قلة خبرتي إلى نوع من المشاعر لتتماشى معك.

ـ ثمة طريقة واحدة لمعرفة هذا.

ـ أجل.. لكن، هل فكرت يوماً أنه سيكون عليك تحمل مسؤولية امرأة؟ هل فكرت يوماً بالأمر هكذا؟

ـ وهل فكرت أنت؟

ـ أجل.. فكرت.. مؤخراً فكرت ملياً فيه.. ربما ليست أفكاراً متحررة تفكر المرأة فيها، ولكن في مثل حالتي الأمر مختلف إذ لست حرة تقريباً. فأنت تتوقع مني أن.. أضع حياتي بين يديك، وأن أنظر إليك وكأنك مرساة حياتي ومخلصي وأب أطفالي.. إن فكرة المرور بهذا كله دون أن أتوقع منك أن تجد سعادة أو فرحاً حقيقياً معي يجعلني...

صمتت مرتجفة، واستوت فجأة في جلستها. قال بصوت أجش:

ـ كولين.. كنت مستعدة لفعل هذا منذ أشهر.

نظرت إليه نظرة حزينة ثم همست:

ـ أجل.. بطريقة أو أخرى علمتني بضع دروس عن نفسي ناش.. ولكنها كانت قاسية. هل ترغب في فنجان قهوة؟

مد يده يمسك معصمها:

ـ لا.. لا تهربي الآن.

ـ أنا لا أهرب.. وأين لي أن أهرب؟

نظر إليها نظرة طويلة ثم قال: «أنا مسافر إلى «أديلايد» بضعة أيام.. سأتصل بك حال عودتي.. هل هناك كلمات أخرى تريدين رميها في وجهي؟»

ـ لا.. وأنت؟

ضاقت عيناه وهما تتأملان وجهها الشاحب، ثم بعدما قال إن لا أفكار

لديه، أحست كولين أنه على وشك إضافة كلمات أخرى ولكنه غير رأيه، فاقشعرت بشرتها مرة أخرى، وعادت الأفكار المراوغة التي أحست بها على الشاطىء تطرق باب تفكيرها، ولكنها ظلت مراوغة غامضة.

غادر الشقة بدون أن يلمسها مع أنها شعرت بأن بينهما شيئاً كان يتدفق.. تياراً لا تعرف كيف تصفه، سوى بأنه اضطرار عدوين للتعايش في مكان واحد، رغم كراهيتهما، ومشاكلهما.

حملت أفكارها معها إلى الفراش.. تقلبها بحثاً وتفكيراً، تسأل نفسها لماذا يجب أن تشغل نفسها بها، بدل التفكير في مدى نجاحها بقلب الطاولات في وجهه.

مرّ الأسبوع بدون أن تتلقى كلمة منه فشعرت بأنها قلقة متوترة، وبدأت تتساءل إن كان يلعب لعبة الصعب المنال.. ولكن لماذا يشغل هذا بالها إلى درجة القلق؟ وما إن اتصلت سكرتيرته لتكلمها بغطرسة حتى خطرت ببال كولين إمكانية أخرى..

وكان أن أثارت الفكرة سخطها مؤقتاً.

* * *

٨ ـ معركة لأجل الحياة

دق جرس الهاتف قبل أن تغادر كولين عملها:

ـ الآنسة فوربز؟ الآنسة كولين فوربز؟

ـ أجل.

ـ أنا جولي نايتلي، سكرتيرة السيد موردون الخاصة.. طلب مني إبلاغك بأنه سيتأخر في «أديلايد» هذا دون ذكر توعكه صحياً.

ـ توعكاً صحياً؟

ـ أوه.. أجل، إنه فيروس ما. وما يحتاجه هو إجازة، ولكنه لا يبالي أبداً بنصيحتي.. قال إنه سيتصل بك ما إن يستطيع.

لا تتصلي بنا.. سنتصل بك..! عجباً..

سألت: «هل هو على الساحل؟»

ـ سيصل وقت الغداء.

ـ شكراً لك..! أتساءل عما إذا كان بالإمكان أن أحصل على عنوانه.

يا لها من سخافة! لا أعرف حتى أين يعيش! قالت جولي نايتلي بجفاء:

ـ لا يحق لي أن أعطي عنوان السيد موردون.

ـ فكرت في إرسال بعض الفاكهة له.. لإسعاده.

ـ إن أحببت إرسالها إلى المكتب، آنسة فوربز، فلا بأس في ذلك.

ـ حسناً شكراً لك.

بذلت جهداً لتمنع نفسها من إقفال السماعة بقوة.. لكن السبب كان أكثر من تصرفات جولي نايتلي.. مع أن كولين فكرت بحدة: كيف تجرؤ على التحدث معي بهذه العجرفة؟ من تظن نفسها؟ وهذا ما أشعل عينيها ووجهها بالغضب. والواقع أن الفكرة هي التي دفعتها إلى الغضب، الفكرة بأنه يحاول إنهاء المهزلة قبل أن تتمكن من الانتقام.

همست لنفسها: حسنٌ حسن. سنرى.. والتقطت الهاتف مرة أخرى لتتصل بستايسي.

ـ ستايسي.. هل سجل والداي عنوان منزل السيد موردون؟ لقد دعيت إلى حفلة وأود أن أطلب منه مرافقتي.

وهذا صحيح إلى درجة ما، إنها حفلة تدشين منزل ليتا ونويل الجديد، ليلة الأحد.. وسيكونان مسرورين إن رافقها جوناش موردون.. مع أنهما لم يعرفا بأمر خطوبتهما.

ـ أعرفه كولين.. أرسلني والدك لأنقل إليه بعض الأوراق يوماً.. يقع منزله في بناية «بيارتيز» شارع «أولد بورلاي» والرقم...

دونت كولين العنوان والرقم بحذر وتمتمت:

ـ ما رأيك.. أعرفه جيداً.

ثم شكرت ستايسي وقالت إنها تلقت بطاقة بريدية من أبويها، ويبدو أنهما يستمتعان بإجازتهما.

كان مبنى «بيارتيز» السكني بعيداً قليلاً عن غابة «سورفيرز» المرتفعة.. مع غياب الشمس، دخلت كولين إلى الردهة الفخمة وتوجهت إلى المصعد الذي حملها إلى الطبقة الرابعة عشرة ثم خرجت من المصعد.

دقت الباب وانتظرت وهي تتساءل عما ستفعله إن كان غير موجود. لكنه كان موجوداً.

يصعب الجزم من كان مصدوماً أكثر حين فتح الباب.. فقد كانت

كولين مذهولة قطعاً لما بدا عليه.. بدت عيناه مثقلتين، وجهه متغضن حتى بدا أنه أكبر سناً.. وأحاطت فكيه ظلال زرقاء.. كانت أكمامه مرفوعة بغير ترتيب وربطة عنقه مرخية.

بدا وكأنه لا يرحب بها فدفعها هذا إلى الغضب.

- كولين.. ماذا تفعلين هنا؟

- علمت أنك.. متوعك.

- ومن أعلمك بهذا؟

- الآنسة نايتلي.. أو لعلها السيدة نايتلي؟ بدت غاضبة لأنك لا توافق على نصيحتها القاضية بالتعطيل فترة.

بدا متوتراً كثيراً:

- إنها تحاول العناية بي.. ولكنني لم أطلب منها أن تخبرك بأنني مريض.. لأنني لست مريضاً.

- ولكنني لا أراك بصحة جيدة.

- لا شأن لها.. ثم..

- أوه.. لا تقلق.. لم تذكر لي عنوانك.. اضطررت للبحث عنه! ولكنك لا تبدو فعلاً...

- لا تبدئي كولين.

- وهل سنكمل حديثنا عند الباب؟ نحن خطيبان على أي حال.

نظر إليها ثم تنحى جانباً لتمر. كانت حقيبة أوراق جلدية على الأرض قرب مائدة الطعام التي تكدست عليها الأوراق، وإلى جانبها قلمه الفضي ونظارته الذهبية الإطار المرمية بغير أناة.

سألته: «أما زلت تعمل؟»

- ولِمَ لا؟ إن جئت لتلعبي دور ملائكة الرحمة، أقُل لك إنني...

سألته ببرود: «وهل كنت مريضاً؟»

هز كتفيه بلا اكتراث:

- كان فيروساً يعاني منه المرء مدة أربع وعشرين ساعة.

- وهل يتركك وكأن الموت يدفئك؟.. ثم، هل تناولت طعاماً هذا المساء؟

- ليس.. بعد.

قالت بهدوء:

- سأطهو لك شيئاً إذن.. وإياك أن تجادلني.. أرجوك! لقد أخرجت الشظية من قدمي وأطعمتني ولم تجد في ذلك ضيراً فلماذا لا أعتني بك الآن قليلاً لأردّ جميلك.

كشّر ثم ابتسم بطريقة ملتوية:

- لا أعرف إن كان لدي ما يخوّلك إعداد شيء.

رفعت حقيبتها المعلقة في كتفها، ووضعتها على رف مغسلة المطبخ، وقالت بهدوء:

- جئت وأنا على أهبة الاستعداد، لن يطول الوقت شرط أن تنهي ما تفعل وتنظف الطاولة.

تردد قليلاً، ثم قال بفظاظة:

- حاضر.. سيدي.

كانت كولين قد اشترت صدور دجاج متبلة قلتها هذا عدا الأرز المطبوخ الذي سخّنته.. صنعت سلطة طازجة، ثم فتشت في لوحة الجبن، لكنها اضطرت للرضى بما اشترته هي.. كانت حالة خزانته ويراده تروي الكثير.

عندما كانت تضع الوجبة على المائدة سألها مفكراً:

- وكأنك تعرفين طريقك جيداً هنا كولين.

- فعلاً.. لأنني ساعدت في تصميم ديكور الشقة.

فتح منديله الذي ألقاه إليها بنظرة كسولة:

- إذن.. كنت أعيش مع جزء منك منذ اشتريت الشقة.. كان

ديكورها جديداً يومذاك. أليس غريباً؟

- لم أفعل كل هذا بمفردي.. ولكنني اشتريت الكراسي الصينية والمصابيح.. و.. واللوحة الموضوعة في غرفة النوم، هذا إن كانت ما تزال هناك.

صمتت فجأة، فتلك اللوحة جريئة قليلاً. ولكنها كانت لمسة نصف مرحة منها.

للمرة الأولى ذلك المساء في عينيه قرأت التسلية الحقيقية.

قال بصوت هامس:

- ما زالت هناك لتعذبني من وقت لآخر.

تورد وجه كولين ولتغطي خجلها نفذت الجزء الثاني من خطتها:

- أتظن أنك ستصبح على ما يرام يوم الأحد؟

- طبعاً.. لماذا؟

- لقد دعيت إلى حفلة.

دفع طبقه عنه: «كان هذا لذيذاً.. شكراً».

سألت بتحدٍ لم تستطع إخفاؤه: حسناً؟

استند إلى ظهر كرسيه ويده على المائدة تتلاعب بالملعقة:

- أي نوع من الحفلات؟

- حفلة أنيقة.. إنها حفلة تدشين منزل.. يقيمها صديقان عزيزان على قلبي.. هو مهندس وهي صديقة قديمة.

- وهل أخبرتهما عنا؟

- لا.

- وهل تنوين؟

- ليس مساء الأحد. هل من سبب يمنعك من الحضور؟ إنهما يعرفان أناساً أرستقراطيين.

ظنت لوهلة أنها رأت وميض ازدراء في عينيه، ثم توارى اللمعان..

مع ذلك قال مبتسماً ابتسامة جافة:

- أرى أنك غيرت خططك كولين.. وإن بدوت متردداً فالسبب هو تساؤلي عما ترمين إليه.

قالت برقة وإن بشيء من الغضب:

- خطط؟ لا أعرف لماذا لم أفكر في استخدامها قبل الآن! مع ذلك، أنا أتعلم ومعلمي سيد التخطيط، أنت.

لم يقل شيئاً، بل أخذ يتفرس بها بهدوء.. ثم قال متجهماً:

- إن كنت تندمين على التقارب الذي نحققه رغم اختلافاتنا..

قاطعته: «آه! أنا نادمة فعلاً.. لقد أصبت الهدف».

لم يرد.. بل ظلَّ يقلب الملعقة بين أصابعه مراراً ومراراً.. ثم رماها ليدلك جبهته قليلاً..

سألته على مضض: «أتعاني من صداع؟»

هز كتفيه فأردفت: «هل تناولت شيئاً مضاداً له؟»

- سأتناول. حسناً سأرافقك إلى الحفلة.. متى ترغبين أن آتي لاصطحابك.. آنسة فوربز؟

عضت شفتها ورمقته بنظرة قاتمة:

- في السابعة.. هذا إذا كنت قادراً.

وقفت تجمع الأطباق:

- ألديك شيئاً هنا.. مثل الأسبرين؟

أشار إلى خزانة المطبخ.. فأحضرت له قرصين مع كوب ماء، وحذرته:

- لا تجادل.. فقط لا تجادل.. أترغب في شيء آخر؟ فنجان شاي مثلاً؟

هز رأسه موافقاً.

كانت تصب له الفنجان حين سمعت كرسيه يتراجع، وأحست بالتوتر

www.elromancia.com

وهو يدخل إلى المطبخ.. ولكنه لم يلمسها بل استند إلى رف المغسلة عاقداً ذراعيه.. ثم قال مبتسماً:

- إذن.. جئت الليلة لتقاتليني كولين.. لا لتعتني بي بحنان الحب..

- لكنني طهوت لك وجبة طعام. هاك الشاي.. لماذا لا تحمله إلى غرفة الجلوس فيما أنظف الأطباق؟

- لن أفعل شيئاً آخر وأنت بهذا المزاج المشاكس.. ولكنني أؤكد لك أنني سأكون بخير وعافية يوم الأحد وعندئذ سأسترد قدرتي على القتال.

نظرت إليه نظرة فارغة، ثم قالت:

- خذ الشاي واذهب.

بعد عشر دقائق، نظرت من المطبخ فرأته متمدداً على الأريكة.. أنهت عملها بهدوء، ثم انتقلت لتطفىء الأنوار، وتركت مصباحاً واحداً ثم وقفت تحدق إليه.

وجدت أن النوم أرخى خطوط التعب والإرهاق عن وجهه، وبدا لها أن مشاعرها المليئة بالشك في غير محلها.. الواضح أنه مريض ومتعب كثيراً.. ربما هو رجل لا يحب الضجيج حوله وهو مريض.

ثم اكتشفت أنها تجد صعوبة في انتزاع نظرها عنه، وبدأ قلبها بالخفقان مسرعاً.. فجلست على كرسي قرب الأريكة لتراقبه.. للمرة الأولى تعترف لنفسها بأنها عالقة في شرك أو بكلمات أخرى أنها تقاتل في هذه المعركة ليس لتنتقم لنفسها بل لأنها كانت تقع أكثر فأكثر في حبه.. إنها تقاتل من أجل حياتها.

تحركت بقلق، ثم نظرت إليه بلهفة.. لكنه لم يتحرك، فسألت نفسها.. كيف، ولماذا؟ الرد واضح.. وإلا لماذا كانت أشبه بقطة فوق صفيح ساخن طوال الأسبوع المنصرم؟ لماذا كانت ملهوفة إلى عدم الانضمام إلى لائحة النساء اللواتي يحتقرهن، وإلى فهم أسباب تصرفها معه وكراهيتها.. ولكن.. لم تكرهه هو؟

همست: يا الله.. هذا ما كان يراوغني.. فأنا أقاتل هذا حقاً.. أيعرف؟ أيدرك أنني لا أستطيع تغيير هذه المشاعر الخطيرة؟ أم لعله لا يزال يلاعبني وكأنني سمكة عالقة في صنارة؟

أغمضت عينيها على دموع الارتباك واليأس، ثم غادرت الشقة بسرعة.

* * *

كان الأحد يوماً متوتراً غير مريح.

بعيداً عنه، عاودها ترددها قليلاً، فحاولت أن تقنع نفسها بأنها لم تقع في حب هذا الرجل الذي لا يؤمن بالحب.

ولكن مع مطلع الظهر أدركت فجأة أنها نسيت شراء هدية للينا ونويل، فراحت تفتش عن حل لهذه المشكلة، حتى تذكرت سنّادتي الكتب الخشبيتين اللتين اشترتهما من فيفي.. فأسرعت إلى المكتب تتضرع إلى الله أن تجدهما في مكانهما.. ووجدتهما، فتركت مذكرة أنها أخذتهما وسارعت في العودة.

لكن، لِمَ العجلة؟ كان العصر فارغاً أمامها وطويلاً.. فكل ما حولها فارغ لا نغم له، وهي خائفة أن يكون هذا بسبب..

لن تسمح لنفسها بهذه الفكرة.. لا تستطيع.. الصورة مذلة.

بدأت تستعد مبكرة بل أبكر من اللازم والسبب رغبتها في إشغال نفسها بأي شيء. لم تدرك ما الذي دفعها إلى ارتداء ما ارتدته.. ولكنها عادت فأدركت أنها تريد أن تبدو بأفضل حلة.

اغتسلت، جففت شعرها، وتغييراً عن العادة عقصت شعرها في أعلى رأسها فوجدت أنها تبدو أنيقة، ناضجة وذات مظهر جاد أما عيناها فبدتا أكبر.. وإذا كانت العينان نافذة الروح، فهذا لا شك له تأثير مضاد.

كان الفستان الذي ارتدته، أزرق يحتضن الجسد برقة له شق صغير على الصدر، لقد سبق أن ارتدت هذا الفستان وهي لا تعتبره جريئاً.

هكذا، ما إن بلغت الساعة السابعة حتى كانت قد حولت نفسها إلى هالة من العدائية والسخط..

قالت وهي تفتح الباب له: «أدخل».

ألقت نظرة سريعة عليه فلاحظت بزته الرمادية الجميلة التفصيل، والقميص الأبيض المخطط بالرمادي الفاتح وربطة العنق الزرقاء.. وأكملت:

ـ لدينا وقت لتناول القهوة إن شئت.

لحق بها إلى غرفة الجلوس: «لا.. شكراً.. لكن...».

قاطعته: «سأحضر حقيبتي إذن».

أمسك يدها وهي تمر به: «إن ذهبنا الآن وصلنا باكراً كثيراً».

ـ ومن يهتم؟

ـ ما دام هذا هو الحال.. فلماذا نزعج نفسينا بالذهاب أصلاً؟

ـ لأن الذهاب أفضل من الجلوس هنا، والإحساس بالسجن.

ـ السجن؟ أم.. الرغبة في القيام بشيء آخر؟ مثل هذا.

ترك يدها ليشدها إلى ما بين ذراعيه.

ارتجفت كولين بمزيج من الارتباك والغضب، وأحس بها فشدها إليه أكثر فأكثر، مع ابتسامة ساخرة:

ـ نظيفة.. زكية الرائحة، أنيقة.. وغاضبة كنمرة جميلة ترغب في أن تروض، ترغب أن تنهي الأمر، ترغب أن تقاتل.. ترغب أن تغلب على أمرها بالقوة.. وتؤخذ.

همست وهي تمد أصابعها كالمخالب تريد اقتلاع عينيه:

ـ أنت.. هذا وصف مقرف!

تركها ثم راح ينظر إليها بخبث:

ـ صحيح؟ لكنني أعتقد أنها طبيعة الأشياء بين الرجل والمرأة، أحبينا هذا أم لم نحبه.. الحب عادة متوحش.

ـ أنت تتكلم عن الرغبة الفجة!

ـ سمها كما تشائين، ولكن لا تحاولي إنكار وجودها بيننا.

ـ الآن، أنا مستعدة لإنكارها.. أنا أفضل أن أتناغم مع... مع...

ـ أفعى؟

أدارت وجهها بحدة فأردف: «هيا اجلبي حقيبتك».

ذهبت وكل عصب فيها يضج بجنون يكاد يوقف قلبها.. وكانت تفكر وبا للمذلة في أنه قد يكون محقاً.. وأن مشاعرها قد انحطت إلى مستوى الرغبة البدائية المتوحشة.

بعد فترة لحق بها فوجدها شاردة.

رفعت رأسها فتلاقت نظرتيهما، وتشابكتا. أحست وكأنها منوّمة مغناطيسياً تحت وقع عينيه اللوزيتين ثم أجبرت نفسها على اختراق تلك اللحظات. مسّدت تنورتها جيداً ثم رفعت ذقنها تنظر إليه ببرود.

فيما كان يمشي على السجادة باتجاهها، ندمت على ترفعها المتغطرس، إنه لن يترك إهانتها له تمر بلا انتقام.. ولم تكن مخطئة.

توقف أمامها مباشرة.. حتى اضطرت إلى رفع رأسها إلى الوراء لتنظر إليه. رفع يده ليمررها على كتفها، حيث أعاد الحمالة إلى مكانها:

ـ عندما نتزوج فستحتاجين إلى ملابس جديدة.

جعلتها الدهشة ترفرف عينيها.. راقبها بشفتين ملتويتين بابتسامة باردة:

ـ أجل.. لأنني لن أستمتع برؤية الرجال ينظرون إلى كتفيك وقدّك الجميل.. ليس من وجهة نظري فقط، بل من وجهة نظرك أيضاً.. أنت التي تكرهين هذا.. أو هذا ما تقولينه لي.

جعلتها الصدمة تتسمر في مكانها لكن هذا حمل ابتسامة باردة أخرى إلى عينيه، ثم قال:

ـ هل لنا أن نذهب؟

* * *

همست ليتا في أذن كولين بعد وقت قصير من وصولهما:

- حبيبتي.. لماذا لم تخبريني؟

- أخبرك ماذا؟

- لماذا كنت مهتمة بأخبار جوناش مورداون!

- آه.. ذلك الأمر.

- أجل.. ذلك الأمر.. هل أنهم أن هناك جواً غامضاً في تصرفاتكما؟

عضت شفتها: «أبداً..»

- إنه. حسناً.. يتحدى أي وصف.. أليس كذلك؟

فكرت كولين بمرارة: إنه فعلاً هكذا..

أكملت ليتا: «أو على الأصح كولين.. عندما يتخبط المرء في غابة الحياة قد يقابل من وقت لآخر ملك الغابة، رجلاً بين الرجال، من أجله ترغب المرأة في بيع روحها بكل سرور».

لم تستطع كولين إلا الابتسام، ليس على وصف ليتا المبالغ فيه، بل لأن ليتا كانت نحيلة طويلة أنيقة فيما نويل قصير، وقصير النظر كذلك، مرح لعوب ولا يحمل أي شبه للملك النمر.. لكن ابتسامتها كانت قصيرة الحياة.

راقبت ليتا تعابيرها تتغير، وقالت ببطء:

- ربما هو ليس برجل تسهل معرفته.. أتودين إخباري كيف... هي الأمور بينكما؟

- أوه.. ليتا.. ليتني أعرف.

بدا القلق على ليتا:

- إن احتجت يوماً إلى من يصغي إليك، فأنا مستعدة دائماً. لماذا لا تسترخين وتستمتعين الآن بالحفلة؟

وكانت حفلة ناجحة.

كان المنزل الجديد حلماً.. وما أدهش أكثر الموجودين هو جمال الديكور ودقته.

ولكن ما أدهش كولين أن معظم الرجال يعرفون ناش.. أما زوجاتهم وصديقاتهم فقد كن سعيدات وراضيات بالتعرف إليه.

زارت كولين أحد الحمامات في المنزل وفي أثناء العودة وقفت في غرفة الاستقبال تشاهد ناش على الشرفة يراقص شقراء رائعة الجمال. رأته يقول شيئاً للشقراء جعلها تضحك.

أذلك بسبب خبرته أم بسبب دمائته؟ إنه لا يشعرها بالتأكيد بأنها ساقطة، ولكنني أراهن أنه لن يفرقع أصابعه، حتى تقفز إلى.. أوه.. اللعنة كولين.. أنت لا تشعرين بالغيرة، بالتأكيد؟

بعد منتصف الليل ازدادت الحفلة حيوية وصخباً. لكن تعب كولين تضاعف وبلغ توترها أشده وهي ترقص مع ناش، مع أنها أحست بالتوتر لدى مراقصتها أي واحد آخر. تساءلت بينها وبين نفسها.. ألن تنتهي هذه الليلة أبداً؟

اختار هو النهاية، في حوالى الواحدة والنصف قال: «يبدو أنك اكتفيت».

هزت رأسها غاضّة طرفها. للمرة الأولى في ذلك المساء أبدى بعض التملك نحوها إذ أمسك يدها ولم يتركها حتى وهو يودع الموجودين، أبقى يدها في يده وهما يسيران نحو السيارة، ثم رفع حاجبه لها، وأشار إلى السقف:

- إلى فوق أم تحت؟

- أوه إلى فوق على ما أعتقد فالليلة جميلة.

لم تعترض عندما بدا واضحاً أنهما لا يتوجهان مباشرة إلى المنزل. ولم تقل شيئاً حين أوقف سيارته قرب شاطىء ممتد يضيئه القمر..

جلست فترة تراقب وتسمع تلاطم الأمواج، ثم رفعت يدها إلى شعرها لترخي الدبابيس منه. تنهدت مسرورة ثم مررت أصابعها فيه وأرجعت رأسها إلى الوراء.

التفت إليها يمد ذراعه على مؤخرة المقعد.

ـ كنت هادئة جداً الليلة كولين.

ـ ربما ذلك عائد إلى تأثير جو المنزل الرائع.

ـ إذن لا علاقة له بما قلته لك قبل الحفلة؟

أدارت وجهها دون أن ترفع رأسها، وقالت:

ـ له علاقة بالتأكيد.

ـ أنا آسف.

همست بعد وقت طويل: «هل أنت آسف حقاً؟»

ـ ألم يساعدك هذا؟

قالت ببطء وهدوء:

ـ لم يساعد في شيء. هل اقتربت من تحديد اليوم؟

لماذا سألته هذا؟

ـ سأراجع مفكرتي.

أغمضت عينيها وفكرت: كنت آمل أن تكون صادقاً معي، وأن تنهي هذه المهزلة فوراً.. لهذا السبب طرحت هذا السؤال.. لكن لماذا لا أنهيها أنا؟ بم آمل؟ بمعجزة؟

جلست في مقعدها: «هلا أوصلتني إلى المنزل حالاً؟»

ـ كولين..

ـ أرجوك.. أنا متعبة.

كان صوتها أجش ملؤه إلحاح مفاجيء.

أمسك ذقنها يجبرها على النظر إليه.. لكن بعض بقايا التحدي جعلها تخفض جفنيها، وتضم شفتيها معاً حتى ابتسم بقسوة ثم تركها ليدير

محرك السيارة.

كانت العودة إلى المنزل رحلة سريعة صامتة.

لم يخرج، ولم يطفيء المحرك في فناء المبنى بل كان كل ما قاله: «سأتصل بك».

خرجت من السيارة، وهرعت إلى الداخل دون أن تلقي نظرة إلى الوراء.

***

www.elroaancia.com

٩ ـ وأخيراً كان القرار . . .

في الصباح التالي فاجأتها فيفي بقدومها إليها. أطلت برأسها إلى مكتب كولين وقالت بمرح:

ـ لقد انتهيت . . أكملتها. وأرجو من الله أن تعجبك. . فإن لم تعجبك حملتها إلى البحر لأغرقها.

ـ فيفي! يا إلهي! كان عملاً رائعاً! ادخلي، ما أروع رؤيتك! أنا واثقة أنك لن تغرقيها . . فكيف لك أن تغرقي الدلافين على أي حال؟

ضحكت فيفي: «لقد وجدت طريقة، وها أنا أحمل إليك ما تريدين» كان تحت ذراعها لفافة ثقيلة الشكل.

أردفت: «الأغراض الأخرى في السيارة».

كانت دلافين فيفي ناجحة، فكان أن أوكلت إليها مهمتين أخريين في الحال، وقالت لها باندفاع:

ـ تعالي لتناول الغداء معي.

ـ هذا من حقي بعد . . .

ـ هراء! قمت أنت بكل العمل في المرة الأخيرة التي التقينا فيها لذا من حقي أن أدعوك.

تحدثتا فترة وهما تتناولان الغداء، ثم قالت فيفي: «كيف حال ناش؟»

ـ بخير . . لم تريه منذ . . . ؟

ـ لا . . الأمر دائماً هكذا. أحياناً لا أراه أشهراً. هل أنت . . هل

هو . . أما زلتما معاً؟

تنهدت كولين: «نعم ما زلنا معاً هذا إن كان ينطبق علينا هذا القول».

قالت فيفي بلطف: «أترغبين في التحدث عن الأمر؟»

ترددت كولين، فأضافت فيفي:

ـ لن أقول شيئاً لناش . . قد يكون صديقي ولكنني أعتبرك صديقتي أيضاً.

ابتسمت كولين لها، وقالت بهدوء:

ـ شكراً . . حسناً . .

ووجدت نفسها تخبرها كل شيء:

ـ . . حين اكتشفت أن العقود موقعة، وأنه كان يتلاعب بي . . أحسست . . أحسست . . هناك مثل قديم عن أن غضب الجحيم لا يقاس بغضب امرأة مهانة.

ـ هذا لأنك وقعت في حبه؟

ـ هذا ما لم أعترف به لنفسي إلا مؤخراً. كان من السهل الادعاء بالعكس خاصة وأنا أراه يجبرني على الزواج . . كم تمنيت لو أكرهه ولكن للأسف العكس هو ما حدث إذ أشعر بأن كياني كله يتمحور عليه . . ومن الصعب أن أشرح . . وكأنه هو وجودي . . حين لا يكون قربي لا أستطيع الاستقرار على شيء. ومتى كان قربي أحار بين . . . الرغبة فيه بيأس وبين شعوري بالحاجة إلى قتله.

ظهرت علامات الألم على وجهها، فأشاحته وحين عادت لتنظر إلى فيفي قالت بصوت مرتعش:

ـ آسفة . . لم أقصد الظهور بمظهر المرأة الدرامية. ولا أشعر دوماً بأنني عنيفة في أحاسيسي . . لكنني أظن . . أن هناك شيئاً واحداً أستطيع القيام به الآن، أن أضع قدر ما أستطيع من مسافة بيني وبينه.

ـ هناك ما لا أفهمه . . ما دام الأمر كما تقولين فأنا أرى أنه قد تمادى

www.elromancia.com

إلى درجة غير عادية، إما لتلقينك درساً وإما للانتقام لكرامته كرجل.. ألا تظنين هذا؟

هزت كولين كتفيها: «ربما فكر: إنها أحد الطيور الجبانة التي أستطيع تلقينها درساً».

سألت فيفي برقة: «أتصدقين هذا حقاً؟»

ـ لو كنت أعرف ما أصدق لما كنت في هذه الورطة. كل ما أفكر فيه أن لا مقام رفيع للمرأة في نظره.

ـ هذا صحيح.. بالنسبة لصنف معين من النساء. وعلى الأرجح السبب هو السبب العادي الذي يتعب الرجل الثري الوسيم.. لكن، ها أنا المثال الحي الذي يثبت عدم كراهيته لجميع النساء.. أتساءل أحياناً عما إذا كان يكره نفسه.

نظرت إليها كولين فاغرة فاها فأضافت فيفي:

ـ لأنه، ورث فتنة أبيه الفتّاكة.. يكره نفسه.. وهذا سبب سخريته.

ـ أوه..!

ـ أجل.

صمتت كولين، ثم قالت كأنها تكلم نفسها:

ـ المرة الوحيدة، أو إحدى المرات النادرة التي تمكنت فيها من التأثير فيه كانت عندما ذكرت والده مرة. لقد قال لي إنه لا يحبه ولماذا.. ولكنني ظننت أن هناك المزيد في الأمر.. مع أنني لم أستطع وضع يدي على الحقيقة.. من ناحية أخرى.. لم يخرج عن عادته بأن يقوم بأشياء مغايرة لما كان يفعله والده..

تمتمت فيفي:

ـ ألم يفعل؟ لم يلتزم بأحد، لقد تلاعب بمن يريد من النساء بخفة وعدم اكتراث وربما كان ذلك مجرد اختبار.. أو نوعاً من التراجع إلى الخلف والقول: كل ما في الأمر مجرد خبرة جسدية..

صمتت قليلاً ثم أردفت:

ـ لا أصدق هذا، ولا أصدق أن عدم الاكتراث هو الذي دفعه ليفعل هذا بك كولين.. بل أظنك أصبت فيه وتراً.

رفعت كولين يدها إلى فمها: «إن تفهمت وضعه فهل أتمكن من اختراق دفاعاته؟»

ـ ربما ليس بإمكانك غير الوقوع في حبه.

فكرت كولين في ما قالته فيفي بروية بعد الظهر.. ذلك المساء لازمت المنزل لأنها توقعت من ناش اتصالاً ولكنه لم يتصل.

بيد أنه في اليوم التالي اصطحبها للغداء.. ظهر ببساطة أمام باب مكتبها كما فعلت فيفي في اليوم السابق.. تفاجأت برؤيته كثيراً وهذا ما دفع التورد إلى وجنتيها. بدأت نبضاتها تتسارع ووقفت بحدة، فأوقعت وعاء شاي خزفي كان على طاولتها، فسارع يلتقطه قبل أن يرتطم بالأرض.

سحبت نفساً عميقاً: «أوه.. شكراً لله!»

ـ وهل هو ثمين؟

ـ جداً.. وقديم جداً.. لا أدري كيف تصرفت بحماقة هكذا.

قال بوقار: «لم أقصد إجفالك!»

ـ لم تجفلني.

ثم تورد وجهها مجدداً لأن ما قالته غير صحيح. لكنه لم يعلق، وأعاد الوعاء بحذر إلى مكانه ثم ارتد ينظر إليها مفكراً.

قالت بحماقة: «هل أردت رؤيتي لسبب ما؟»

لوت ابتسامة صغيرة شفتيه:

ـ أردت فقط رؤيتك.. هل أشتري لك الغداء؟

نظرت إليه فشعرت بأن معدتها تتحرك لعلمها بأن هناك فرصة لتقوم بما يجب عليها القيام به.

قالت بهدوء: «شكراً لك.. يصدف أنني حرة بعد الظهر».

اصطحبها إلى مطعم يدعى «نيكوليني» وهناك جلسا في الخارج على الشرفة تحت المظلة، المياه مترامية أمامهما، وأشعة الشمس تتراقص عليها، وفي المرفأ قوارب يبلغ ثمنها ملايين الدولارات، وهي راسية جميعاً.

اختار القريدس المشهور عند نيكوليني مع السلطة.. لم تستطع كولين التفكير في ما تقوله أو في طريقة تبدأ بها كلامها..

وما قام هو بدور أو بحركة أو بمبادرة للحديث حتى أصبحا في منتصف وجبة الطعام.. حيث قال وهو يراقب نظرتها تستقر على يخت برّاق:

ـ أتودين مركباً هدية زواج؟

وجهت نظرها إليه بسرعة:

ـ لا.. شكراً.

ـ أمر مؤسف، كان بإمكاننا تسميته «اللايدي كلودالين».. ماذا تحبين إذن؟ بإمكانك الحصول على ما تريدين إنما ضمن المعقول.

ارتعش صوتها: «ألهذا السبب طلبتني للغداء معك؟ لإهانتي؟»

تصادمت عيونهما.. وكانت عيناها تميلان إلى اللون الأزرق أكثر منه إلى اللون الرمادي.

ـ كان يجب أن أقول: لتتابع إهانتي!

رفع حاجبه: «أعتقد أننا هنا ستتعامل مع الحقيقة.. ما الذي جعلك تقررين المواجهة أخيراً؟»

سألته بعدم تصديق: «أتعرف أنني أعرف؟»

تمتم: «حزرت ذلك. كان عليك أن تعرفي عاجلاً أم آجلاً».

ـ يا لبرودة دمك التي لا يمكن تصديقها..

ـ صحيح؟ لكن العرض ما زال قائماً. على فكرة.. هل تتزوجينني

كولين؟

ـ إن كان هذا نوعاً آخر...

ـ لا.. ليس كما تقولين كولين.. فهل تتزوجينني؟

ـ لا أفهم.

ـ لماذا أريد أن أتزوجك؟

ـ أجل.. لا أفهم.

ـ ألا ترين أن كل واحد منا يناسب الآخر؟

ـ هل أنا.. هل مررت بنوع من الامتحان دون أن أدرك؟

قال بهدوء شديد: «ربما».

ألمها النظر إليه، ليس لأنها أحبته ولا يمكنها نكران حبها هذا، بل لأنها تعرفه الآن كما لم تعرف أي رجل آخر. ولكن ما تعرفه أيضاً أنها لا تستطيع تغييره.

أخذت تتلاعب بالمملحة تقلبها بين أصابعها النحيلة الجميلة:

ـ قل لي شيئاً ناش.. لماذا أصدرت ذلك الإنذار رغم زيف ادعائه؟

ارتد إلى الوراء في كرسيه:

ـ فعلت هذا بوحي من تلك اللحظة.. كنت متغطرسة.. وجميلة.. فظننت أنها الطريقة الوحيدة لأكتشف حقيقتك، كولين.

ـ والآن وقد عرفت أنني لن أذهب معك إلى الفراش.. أكان هذا هو الامتحان الذي مررت به؟

صمت ولكنها رأت وميض سخرية صغير في عينيه فأغمضت عينيها قليلاً. فسأل: «أيزعجك هذا؟»

نظرت كولين إلى يديها وإلى سمكتين تعرف أنها لن تستطيع أن تأكلهما..

همست: «أجل. يزعجني كثيراً».

ـ يبدو أن الأمر مهم لك.

ـ كان.. على أي حال كنا على مفترق طرق وما زلنا.. فأنا لا أصدق أن لامتحانك دافعاً غير عدم اكتراث ساخر عميق، متجذر في نفسك.. الأمر الذي لم تحاول يوماً أن تنكره.. لكنني لا أستطيع معايشته.. وهنا الأهمية بالنسبة لي.

قال مبتسماً ابتسامة متجهمة صغيرة:

ـ من ناحية أخرى كولين، ألا تجدين أننا شكلنا نوعاً من الوحدة في كل هذا الصراع.. إن شئت تسميته؟ كل منا يريد الآخر ولا يريد أحد سواه. نحن.. نحن قادران على قراءة أفكار بعضنا بعضاً.. عرفت ليلة اتصالي من ملبورن بأنك ستعرفين أن العقود وقعت.. وعرفت أنت، إذا كنت مستعدة للاعتراف بأنني كنت أضغط عليك.

تساءلت بعذاب داخلي: وهل عرفت حقاً؟ ولكنها كررت سؤاله وفي عينيها مرارة..

ـ وهل عرفت حقاً أنك تضغط عليّ؟

ـ لا تقولي إنك لم تعرفي أن اللعبة لم تعد لعبة.

تورد وجهها ولكنها قالت بهدوء:

ـ أعتقد أنها كانت لعبة بالنسبة لك.

ظهرت السخرية في نظرته، فأردفت بهدوء:

ـ حسناً، أظنني عرفت وإن لم أعترف أمام نفسي بأنها لعبة. إنما ليس بالنسبة لي، على الأقل.

ـ ولا بالنسبة لي.

قالت بصوت مرتعش:

ـ على أي حال.. لا أستطيع الزواج بك ناش.. فأنا أريد أكثر مما تستطيع إعطائي إياه.

ـ لكنك لا تعرفين ما أستطيع أن أعطيك إياه.. كولين.

همست: «بلى.. أعرف.. زواج كله اختبارات.. وأنا فيه مرشحة

للفشل عاجلاً أم آجلاً..»

مسحت دمعة من رموشها:

ـ لقد قمت بأشياء سخيفة منذ لقائي بك ناش. ولكن كما ذكرت سابقاً، تعلمت أموراً كثيرة لذا الرد هو لا، لن يغير شيء تقوله رأيي.. أنا.. أعتقد أن الأفضل أن أذهب الآن.

وضع المال على المائدة ثم تأهب. قالت بفظاظة:

ـ أستطيع طلب تاكسي.

ولكنه مد يده يساعدها. ولم يترك ذراعها حتى وصلا إلى سيارته، ولكنه لم يقل شيئاً في أثناء العودة إلى شارع «مابن بيتش».

ثم أطفأ المحرك وارتدّ إليها:

ـ إذا كان ما تريدين مني إعلان حب أبدي لا يموت، فعليّ أن أعترف أن الكلمات وحدها لا تعني شيئاً. إن كان أحدهم قد ادّعى حبك فهذا شأن لا علاقة لي به.. فأنا لم أقسم بشيء لك، وما حاولت قطع وعود زائفة.. ولكنني أظن أنني أعرفك أفضل من أي رجل سيعرفك.

خرج نفسها بحدة لتماثل كلماته مع أفكارها السابقة.

أردف: بالنسبة لي هذا هو المهم.. وأنا آسف.. فهنا يكمن خلافنا.

مد يده يلامس شعرها، ثم التوت شفتاه وأشاح بوجهه بعيداً، ثم عاد إليها ليقول ببساطة: «وداعاً كولين».

ـ وداعاً ناش.

***

بعد ساعات على هذا، كانت جالسة في شقتها، تحس بالحرمان بشكل غير معقول. استرجعت ما قاله لها وما قام به، وكل ردات فعلها وتجاوبها، وكأنها تفتش عن حقيقة ما زالت تراوغها. مثل القناعة بأنهما يفهمان بعضهما بعضاً أكثر من أي شخص آخر.. فهل يكفي هذا لبناء التزام يدوم مدى الحياة؟ هل قناعتها بالعكس تنبع من نظرة عاطفية مبالغة

www.elromancia.com

عن الحب؟

همست لنفسها أخيراً وهي تحتضن وسادة:

ـ مهما يكن، لقد اتخذت القرار.. لأنني لا أستطيع تغيير نفسي..

أخيراً هطلت الدموع.. ولكنها لم تشفِ إحساسها بالخسارة..

وتساءلت عما إذا كان هناك ما قد يشفيها.

***

١٠ ـ أرجوك!

مرت ثلاثة أشهر..

عادت كولين إلى المنزل لتأخذ ملفاً رفيعاً من حقيبتها، ثم جلست لتدرس محتوياته: كراسات، ملصقات، وتذكرة سفر.. الوجهة «هونغ كونغ» وسنغافورة.

تاريخ السفر بعد أسبوعين.

درستها بضع دقائق، ثم أبعدتها متنهدة، فهي تعرف أن الرحلة لن تسعدها لأنها محاولة يائسة للنسيان.

لم تكن قد سمعت أو رأت ما له علاقة بناش. مع أنها سمعت بعض الأخبار عنه من والديها، وكانت عرضة لأسئلتهما المتعلقة بخبو وهج تلك البداية الواعدة بسرعة، وهذا ما ردت عليه بهدوء. وقامت بما في وسعها لإخفاء ما فقدته من وزن لم يكن قليلاً. وبعد ثلاثة أشهر لم تكن تنام جيداً، لكن كان هناك أوقات تنظر فيها أمها إليها وتهمّ بقول شيء ما، ولكنها تعود وتغيّر رأيها في آخر لحظة..

عندها أخيراً قررت كولين الابتعاد.. وقالت لنفسها:

ـ حسناً.. أنا مسافرة.

وقفت لتسدل الستائر في وجه أمسية خريفية باردة، ثم أردفت:

ـ طالما أردت رؤية هونغ كونغ وسنغافورة..

***

www.elromancia.com

كان بهو فندق «ماندرين» في هونغ كونغ سيمفونية من اللونين الذهبي والأسود. . تأثرت كولين بجو الأناقة، وبالأخص بغياب الضجيج الموجود في شوارع هونغ كونغ. نظرت بعينين واسعتين إلى الخارج من نافذة السيارة التي أقلتها من مطار «كاي تاك» إلى الفندق عبر نفق الميناء. ولم يكن الازدحام ما أدهشها فقط بل اكتظاظ الشوارع بالناس. تساءلت عما إذا كانت ستتجرأ على مغادرة فندق الماندرين.

لكن ربما هذا ما أحتاجه بالضبط. . التحدي. شيء ما يجعلني أعمل مجدداً أو بشكل لائق صحيح. . ولو بعد نوم طويل جيد. فأنا أحس وكأنني كنت على الطائرة مدة تسع عشرة ساعة لا تسع ساعات.

ـ آنسة فوربز؟

ارتدت عن طاولة الاستقبال حيث سجلت اسمها بقليل من الدهشة:

ـ نعم؟

ـ آنسة فوربز. . هل لي أن أقدم نفسي؟ أنا المدير، وكان لي شرف استقبال السير سايمون واللايدي فوربز في الماندرين عدة مرات.

ابتسمت كولين: «أوه. . أعرف هذا. أصرّا عليّ حتى أقيم هنا. . كيف حالك؟»

ـ آنسة فوربز. .

بدا التردد على الرجل فتلاشت ابتسامة كولين:

ـ هل من خطب؟

ـ أنا آسف لأنني مضطر إلى حمل هذا الخبر. . أمك مريضة آنسة فوربز.

ـ مريضة؟ أهي في وضع خطر؟

ـ أجل. . ولكن أرجوك. . تعالي إلى مكتبي، نستطيع. .

ـ لكن، يجب أن أعود. . حالاً. . أوه. . أرجوك. . أنا. .

ـ هذا ما أرجو ترتيبه معك. . أرجوك، تعالي من هنا، آنسة فوربز.

لقد بدت رحلة الذهاب إلى هونغ كونغ طويلة ولكنها لا تقارن بما بدت عليه رحلة العودة إلى الوطن بعد ثماني ساعات من الإقامة في هونغ كونغ. لم تستطع النوم أو تناول الطعام. . وللمرة الأولى في حياتها عانت من الخوف على الطائرة. . ولم تستطع التركيز على أي شيء إلا على صورة أمها التي كانت ضحية نوبة قلبية والتي هي الآن في غرفة العناية الفائقة.

كان آخر من توقعت رؤيته أمام أبواب الدخول المتحركة، هو ناش. . ناش المرتدي بزة سوداء وقميصاً أبيض.

صاحت: هل. . جئت لملاقاتي؟

ـ أجل.

همست: «كيف حالها؟»

تدفقت الدموع إلى وجهها. . وأدركت بحرج أنها تتمسك بسترته. .

قال بهدوء: «إنها متمسكة بالحياة كولين. . تعالي».

وضع ذراعه حولها، فأخفت وجهها في كتفه ثم تماسكت: «كيف حالك؟»

رد باقتضاب: «بخير».

فيما كانا يتبادلان النظرات تصاعد إلى قلبها من جديد كل ما فتنها وعذبها فيه. في موجة حيّة من البؤس، بدا كما كان منذ البداية. وتذكرت كيف كانت تمتع نظرها بمظهره، مع أن نظرتها إليه كانت زائفة. . لكنها منذ البداية عرفت أنه وحيد. . قلبياً.

انتزعت بصرها عنه، وانحنت تلتقط حقائبها، ولكنه أخذها منها، وعلق على خفة وزنها.

قالت: «قيل لي إن عليّ أن أذهب إلى هونغ كونغ بالثياب التي ألبسها فقط. . لأن كل شيء هناك رخيص. . وصدقت ما قيل لي».

ابتسم قليلاً، واقتادها نحو سيارته.

www.elromancia.com

كانت رحلة سريعة نحو الساحل.. محا قلق كولين اليائس على أمها من نفسها أية مشاعر أخرى.. أخبرها ناش كل ما يعرفه عن حالتها. في منتصف الطريق سألها:

ـ هل تناولت الطعام مؤخراً؟

ـ لم أستطع.

ـ يجب أن تأكلي.. لن تساعدي أحداً بانهيارك..

أوقف السيارة قرب مطعم على الطريق، جلب منه سندويش دجاج محمص، ولوح شوكولا.. وما أدهشها أنها أكلتهما، ثم شربت زجاجة المرطبات التي جلبها أيضاً.

تمتمت: «شكراً.. أشعر بأنني أقوى حالاً قليلاً الآن».

أبعد يده عن المقود ووضعها فوق يدها.

ربما كانت تلك أطول ليلة مرت بحياة كولين، كانت فيها هي وأبوها يواسيان بعضهما بعضاً ويدعوان من أجل شفاء أمها وظل الأب يقول:

ـ لا أدري ماذا سأفعل بدونها.. إنها تعني لي الكثير.

وظلت ترد: «أعرف.. أعرف».

لكن ساعات الفجر الأولى حملت إليهما أخباراً سارة..

قال لهما الطبيب: إنها محظوظة سير سايمون.. قد تصاب ببعض الشلل الخفيف، لكنها بكل تأكيد خرجت من دائرة الخطر الآن..

تعلقت كولين بأبيها، تذرف دموع الفرح.. وتنهد ناش براحة ظاهرة، وهو الذي ظلّ بعيداً لئلا يزج أنفه في مأساتهما.

ثم طفق يتحدث إلى السير سايمون بهدوء فترة، بعد ذلك جاء والدها إليها وقال:

ـ عزيزتي.. ناش سيصحبك إلى المنزل.

ـ لكن..

ـ حبيبتي.. لا شك أنك مرهقة.

ـ وأنت أيضاً.

ابتسم بتعب: «أنا لم أجب نصف العالم بالطائرة ذهاباً وإياباً في غضون يومين.. لكنهم سيحضرون لي فراشاً هنا. اذهبي إلى البيت ونامي.. حينما نستفيقين ستكوتين منتعشة مرتاحة».

كانت السماء تمطر في الخارج، وكادت تغفو وهي في السيارة، لكن حين صعدت إلى شقتها، أحست بأنها مستيقظة مجدداً.. قالت متوترة وهو يفتح الباب لها:

ـ شكراً.. لست مضطراً إلى البقاء.

رد بنظرة منتقدة:

ـ بلى.. لماذا لا تستحمين؟ سأعد لك الفطور.

ـ حسناً ولكنك متعب أيضاً، وليس لدي هنا ما تصنع منه فطوراً.

ـ كولين.. لا تجادلي.. نفذي فقط ما أقوله لك. سأخرج لأجلب شيئاً.

كان الحمام نعمة. فيما كانت مستلقية في المغطس حيث المياه العطرة الزكية، أحست بأعصابها تتفكك.. وأخذت تشم رائحة اللحم المقلي التي كانت تتسلل إلى الحمام.

تناولا اللحم والبيض في تناغم تام، وكأنهما معزولان عن كل ما حدث بينهما.

أخبرته عن انطباعها المرتبك عن هونغ كونغ، وأخبرها أنه احتاج إلى سفرتين ليعتاد على جو المكان. ذكر لها أن فيفي قررت الخروج من عزلتها وقالت كولين بحرارة إنها سعيدة بهذا الخبر. ثم سألته ماذا سيفعل بالمنزل والجياد، وقال إنه سيرسل الجياد إلى جيرانه، ويقفل المنزل.

كل هذا طبيعي.. هذا ما قاله لها عقلها.

صنع القهوة.. وجلست مغمضة العينين تشربها.. ثم قال بهدوء: «إلى النوم الآن».

تمتمت وهي تجد صعوبة في إبقاء عينيها مفتوحتين: أجل.

ـ هيا، اذهبي.. سأنظف المكان.

وقفت تنظر إليه للحظات طويلة دون أن تدري ما ستقول.. في النهاية قالت:

ـ شكراً.

لم يرد، بل أشاح بوجهه أولاً.

***

سرعان ما غفت تقريباً.. ولكن لتستفيق بعد دقائق خافقة القلب متوترة الأعصاب. ما إن تمكنت من تهدئة نفسها قليلاً حتى عرفت أنها لن تستطيع النوم وأنه ما كان عليها القبول بالمنوم الخفيف الذي عرضه عليها الطبيب.

وجدها ناش جالسة ورأسها بين يديها.. جعلها انفتاح الباب بهدوء تنظر إلى أعلى.

سألها وهو يتقدم إلى السرير: «ما الأمر؟»

همست بعجز:

ـ لا أستطيع النوم.. أنا.. كتلة توتر.

أدركت أنها تبكي، فجلس إلى جانبها يضمها بين ذراعيه ويملس شعرها، متمتماً:

ـ بل تستطيعين النوم.. سأساعدك.

بكت: «أحس أنني غبية».

ـ لماذا؟ أنت فقط متعبة.

ـ أعرف هذا.. لكن..

تركها ليمسح خصلة شعر عن وجهها:

ـ استلقي.

ـ إلى.. أين.. ستذهب؟

ـ لن أذهب إلى أي مكان.

جلس على سريرها ودثّرها بالأغطية.

ـ أنا متعب أيضاً.. رائحتك كرائحة الورد.

ـ إنها رائحة زيت الحمام.

ـ أتشعرين بالراحة؟

ـ أجل.

ـ أغمضي عينيك إذن.

ـ أنا.. خائفة.

ـ لا.. لست خائفة، فكري في شيء جميل.. في الورود التي هي عطرك دوماً. أنت نحيلة كزهرة حمراء ملفوفة بالسيلوفان.. فكري في زهور بيضاء متفتحة حولها يطير النحل.

لم تدر كولين فيما بعد هل هي الورود والزهور التي حملتها على النوم أو صوته الرخيم الهادىء.

عندما استيقظت كان المطر قد توقف، والشمس مشرقة، والوقت بعد منتصف النهار.. وكانت بمفردها.

أوهكذا ظنت عندما نظرت إلى حيث كان ناش جالساً على سريرها. ولكنه كان واقفاً، مستنداً إلى إطار الباب، سترته معلقة على كتفه وعقدته محلولة، وشعره على جبينه.

نطقت اسمه باضطراب، فاستقام وبدأ يتكلم.. ولكنها قاطعته هامسة:

ـ لا تذهب أرجوك.

كانت عيناه حزينتين وهو ينظر إليها، إلى شعرها، إلى جمالها، ثم عاد إلى عينيها:

ـ يجب أن أذهب.. فلو بقيت لفعلت شيئاً ما قد تندم عليه.

غضّت طرفها وقالت:

ـ ناش. لا أعرف ما أقول، إنما لا أريد أن تبتعد عن حياتي.

***

١١ ـ بانتظار الكلام

قال المصور بحماس: «انتبهوا!»

ـ رائع.. والآن، إذا كان بالإمكان أن آخذ صورة أخيرة للسيدة موردواون والطفل.

كانت حفلة عماد صغيرة، تضم والدي كولين ليتا ونويل وفيفي ومرافقها، الذي هو رجل ضخم واضح أنه يحبها كثيراً، وستايسي الذي صنع بنفسه قالب الحلو وأصرّ أن يكون الساقي والممرض الرئيسي للعناية بتشارلز موردواون الذي هو في الشهر الثالث.

كان جمعاً قليلاً تجمع في المنزل الذي يعلو التلة المطلة على نهر «التويد». التفتت كولين حولها بمحبة عميقة وهي تأخذ تشارلز من جدته التي خرجت من النوبة القلبية بعرج بسيط.

لم تلحظ ستايسي وهو يعبد ملء الكؤوس بالشراب المنعش. في الواقع، نقلت بصرها إلى ابنها النائم الذي كان يشبه أباه كثيراً. وكانت أفكارها مشغولة به إذ يوشك أن يستيقظ مطالباً بطعامه بإصرار وعناد يذكرها بوالده.. ولم ترفع بصرها حالما ومضت أنوار الكاميرا.. للحظات.. لم يقل أحد كلمة، كان الجميع يراقبونها جالسة في فستانها الأزرق وشعرها مسترسل على كتفيها.

ثم تنحنح السير سايمون، واقترح نخباً:

ـ نخب كولين.

www.liilas-romancia.com

رفعت بصرها أخيراً مجفلة. وتورد وجهها لأن الجميع كانوا يرددون قول أبيها. ونظرت مباشرة إلى ناش، الشخص الوحيد الذي لم يشارك بالنخب.. ولكن ما إن تلاقت عيونهما حتى رفع كوبه بصمت، في تحية مطولة، ورأت في عمقهما اللوزي نظرة أصبحت مألوفة لها. نظرة تقول لها إنه سرعان ما سينهي الحفلة بدبلوماسية كبيرة، وبعدما ترضع ابنها.. سيحملها إلى الفراش، ويعاملها بطريقة تبتهج كلما تذكرتها. حتى بعد سنتين من الزواج.

كانت الشمس قد تسللت إلى ما وراء أفق جبل «وارتنغ» عندما استعدت كولين للصعود، بعدما قامت بإحمام تشارلز وإرضاعه.

كانت ترتدي قفطاناً من حرير عاجي أحمر اللون ذي أطراف ذهبية، اشتراه لها ناش في هونغ كونغ حيث أمضيا جزءاً من شهر عسلهما، بعد زفاف جرى بعد بضعة أيام على عودتها من رحلة الفرار الأولى.. ولكنها تأخرت قليلاً وهي تفكر في زواجهما، وكيف تمّ بإتقان مشترك وبدون كلام. وكأنه أمر محتوم.. ونتيجة لا يمكن استبدالها بحل آخر.. وتفكر كذلك أن ما بينهما ما زال حتى الآن بعيداً عن أي كلام.. فباستثناء القسم الذي أطلقاه يوم الزفاف لم يقوما بإعلان عن مشاعرهما، ولكنه كان يربطها به بطريقة أمتن مع مرور الأيام. كانت أحياناً تتساءل عما إذا كان سينطق بالكلمات يوماً، الكلمات التي طالما تاقت إلى سماعها. كانت أحياناً تشتاق إلى البوح بها بنفسها.. لكنها لم تبح بها قط وبدل ذلك بادلته شغفه، ورعايته وحنانه الذي ظهر بقوة في أيام الحمل والولادة. قالت لنفسها إنها لا تحتاج إلى كلام.. إنها قانعة مطمئنة.. ولن تضغط عليه.. وهكذا كانت طبيعة الأشياء بينهما.

كان بانتظارها في غرفة الجلوس مع صينية من سندويشات السلمون المدخّن الموضوعة على طاولة قرب الموقد الحجرية. وكان قد غيّر ملابسه أيضاً ليرتدي جينزاً وقميصاً رياضياً كحلي اللون..

سألها رافعاً حاجبه: نام؟

ـ أجل. لا أظن أن حفل عمادته قد أثر فيه.

قال ضاحكاً: إنه رجل يفكر باتجاه واحد كما لاحظت. الغريب أننا نشاركه ذلك الاتجاه.

تمتمت: «لاحظت هذا.. لا بد أنه ذلك القول القديم: من شابه أباه ما ظلم».

مد يده إلى يدها وشدها لتجلس قربه:

ـ كيف تشعرين وأنت تملكين نسختين متماثلتين لرجلين يفكران في اتجاه واحد؟

تسمّرت كولين، وعندما نظرت إليه، كانت عيناها واسعتين مذعورتين.

ـ ليس عليك..

تنحنحت قليلاً: «أن تقول هذا».

ـ أليس عليّ؟

أحنى رأسه ينظر إلى خاتم زواجها الذهبي، وتابع:

ـ أظن أن هذا ما كان عليّ قوله منذ مدة.

همست وهي تحس أنها ترتعش:

ـ ناش.. أنا.. لماذا الآن؟ أبسبب تشارلز؟ أم بسبب...؟

صمتت لأن قبضته اشتدت على يدها بشكل لا يحتمل تقريباً.

قال: «الامتحان الوحيد بيننا هو تعقلي وقدرتي على فهم أن لا شيء قد يمنعني عن حبك. قلت لي مرة شيئاً عن الفرح.. عندما كنت أراقبك اليوم عمّ نفسي الفخر والفرح.. وشيء آخر.. هو معرفتي بأنني لا أستطيع الاستغناء عنك.. هكذا صدقت ما أشعر به أخيراً، وأصبحت شخصاً متملكاً موسوساً، وكل تلك الأشياء التي أقسمت ألا أكونها.. أتمانعين إن كنت هذا الشخص؟»

قالت بصوت متحشرج والعبرة تخنق صوتها: يا إلهي!

ـ لم أقصد أن أبدو مهذاراً.. لأنني جاد فعلياً.. أحبك كولين.. وإن طال الأمد حتى اعترفت، فأنا آسف.. آسف جداً.. لقد رأيتك بعد ولادة تشارلز مرهقة، متألمة، تنظرين إليّ لحظة، وكأنك تفتشين عن شيء.. وعندما لم تجدي هذا الشيء أغمضت عينيك.. ثم نظرت إليّ ثانية وابتسمت.. ساعتئذ عرفت أن ما حدث حدث.. عرفت أنني أحببتك ليس لأنك جميلة ومتكبرة فحسب، بل لأنك قوية ملتزمة ومخلصة.

ـ لماذا..

ـ لماذا لم أعترف بحبي يومئذ؟

تنهد: «لقد عرفت الحقيقة ولكنني لم أعرف كيف أصوغ هذا بالكلمات.. وحتى الآن، ما أحس به تجاهك أعمق مما تقوله الكلمات.. سألتك أن تتزوجيني عدة مرات وبطرق عدة. وعندما تزوجنا لم نقل الكثير لبعضنا بعضاً.. فهل تظنين أنني مجنون إن قلت لك إن هذه المرة كانت حقيقية؟»

نظرت إليه فاغرة فاها.

ـ لا.. حبيبتي كولين.. أنا لم أجن.. ولكنني اكتشفت دافعاً عاطفياً صافياً، ولهذا أظن أن المناسبة صالحة لأعطيك هذا..

أخرج من بين الوسائد علبتين مخمليتين. واتسعت عيناها.. فأردف وهو يعطيها العلبة الصغيرة:

ـ في هذه خاتم الخطوبة. افتحيها.

ضغطت على المزلاج، ولم تستطع منع شهقة ابتهاج وهي ترى الخاتم القابع وسط ساتان أبيض.. لم يكن كبيراً أو ملفتاً للنظر، ولم يكن من الألماس أو الزفير بل كان ذا إطار ذهبي مزيناً بدمعتين صغيرتين بلون الحليب، ولكن كان يومض مع بياضهما لون أخضر وذهبي ووردي كلما انصب عليهما الضوء.

ـ إنه رائع.

ـ أعجبك؟

ـ جميل جداً. شكراً لك.

ومسحت دمعتين فقال بمكر:

ـ ظننتك تفضلينه على السلسلة والكرة.. مع أنني جلبت لك ما تريدين.. للذكرى.

نظرت إليه ثم إلى العلبة الثانية المفتوحة حيث قبع حجر كريم آخر من الجمشت الأرجواني، على شكل كرة يحيط به إطار ذهبي مربوط بسلسلة ذهبية رفيعة.

سحبت نفساً بصعوبة: «آه. ناش».

التقطته بين أصابعها.. فقال وهو يمسك وجهها بين يديه:

ـ لو كنت حكماً.. لكان هذا ذكرى خاصة جداً. سأريك ما أعني بعد لحظات.. أما الآن، هل أستطيع وضع الخاتم في يدك؟

رفعت يدها اليسرى، حيث دسه أمام خاتم الزواج، ثم رفع بصره إليها:

ـ هل تشعرين الآن بأنك متزوجة مني بكل في الكلمة من معنى.. كولين؟

نظرت إليه وحبها كله طافح على وجهها وفي عينيها.. وقالت: أجل.

وضمته بشغف وحب.

كان الوقت متأخراً حين تحركت بين ذراعيه، فقالت:

ـ كنت ستريني شيئاً.

ـ آه. أجل.

مد يده وأضاء المصباح ثم التقط حجر الجمشت الأرجواني ووضعه حول عنقها ثم راح يعبث بالقفل قليلاً، ثم بعدما انتهى، أصلح مكان

الحجر في السلسلة بحيث تدلى بشكل ساحر.

أخيراً نظرت كولين إليه، ثم إلى عيني ناش.

ـ هل أستطيع أن أقول ما أفكر فيه؟

ـ أرجوك قولي.

ـ لم أكن مخطئة.. لأنك أنت من اجترحت المعجزة. ولأنني أحببتك.. وسأحبك دوماً.

ـ كولين.. حبيبتي.. هذا ما أريده.

ومضت عيناه قليلاً، قبل أن يشدها بين ذراعيه ويمسكها وكأنه لا يريد أن يتركها أبداً.

***

www.elromancia.com
مـــرمـــوريـــة